من أجل ولدى

محمد عبد الحليم عبد الله

الطبعة الأولى
٢٠١٨ م

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

قصص وروايات

تصميم الغلاف:

محمد جمال

لوحة الغلاف بريشة

محمد عطية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عبد الله، محمد عبد الحليم، 1913 - 1970.
من أجل ولدى/ محمد عبد الحليم عبد الله.
ط 01 – القاهرة: دار المعارف، 2017.
236 ص، 19.5 سم
تدمك 2 8630 02 977 978
1 – القصص العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813
رقم الإيداع: 23566/ 2017
رقم أمر التشغيل: 1/2017/90
رقم الكونجرس: 4 – 840593 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ –
فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

①

منذ سبعة وثلاثين عاما بدأت قصة حياتى...

سـأقصها عليك يا صديقى بكل مـا فيها لأنها تخصنى وحدى.. إن التجارب المشتركة أشبه بمصابيح السماء تهدى نورها لكل جيل وتنثر ضوءها على كل قطر.

* * *

لما أدار أبى المفتاح فى باب المسكن الخارجى، كان الليل قد جاوز منتصفه، واتجه نحو الداخل مارا بحجرة أمى الواقعة على اليمين والتـى كان النور فيها لا يزال مشـعلا، فتوقف وأطل من خصاص بابها ثـم انصرف لينام فـى حجرة أخرى وعلـى وجهه علامات اشمئزاز، فقد سمعها تئن.

كان فى حالة لا يستطيع معها أن يصنع شيئا لأنه سكران.

وفـى حجرة أخرى بـات يتلوى من آلام المعـدة.. وفى الحجرة المجـاورة باتت أمى تئن... وظلت تئن وتتوجع حتى مطلع الفجر. ثم حدث لها ما لم يكن فى حسـابها ولا حسـاب الطبيب نفسـه. إذ ولـدت غلاما ذكرا أبوه فى غيبوبـة كحولية تخف وتثقل وتولد الخيالات.

أما ذلك الغلام فهو.. أنا!!

وعنــد الصباح أخذ أبى إجــازة فلم يذهب إلى عمله. ورفع إلى الله وجهه الجميل الشــاحب وابتهل بفم فاحت منه رائحة الخمر: أن أعيش!!

ودمعت عيناه. وسمع الله دعاء الســكران... بدليل أننى عشــت ونذر للسماء نذرا عظيما هو أننى إن نجوت من قبضة الموت ليغيرن سلوكه وليبدأن حياة نظيفة.

كانا يفقدان كل من يلدان فى ســن محددة لا تكاد تتجاوز ثلاثة أعوام.

وإذا عــاد أبــى من الخارج ببقيــة من وعيــه كان يناقش هذا الموضوع مناقشــة الســكارى الأذكياء. فهو ولا شك يفكر فيه طول النهار، خصوصا فى الســاعات التى يخلوها بنفسه فى المكتب أو الفــراش. حتى إذا دخل الليل طفت أفكاره على الســطح... كأنما عومتها الخمر...

ويديــر المفتاح الذى يحمله فــى جيبه فى الباب الخارجى حتى لا يزعــج أمى، ثم يدخل. فــإذا كان غير متعب ومَضَت بقية مرحه فى ظلمة المأســاة فيتناول المشكلة باستخفاف لا يخلو من فلسفة أو فلسفة لا تخلو من سذاجة.

– فى أحشائك جنين يا ســيدتى... نعم.. أنا أعلم ذلك. لكن... موقفنــا من الذرية مضحك للغاية. هو كما وصفه تماما «بكر أفندى» العربيد السليط اللسان... قال لى ذات ليلة ونحن فى الحانة:

– لمـاذا تخطـف الحـدأة كتاكيتك أيها المنحـوس؟! وضحك المخمـورون ليلتئذ وأسـقطت قدحى الفارغ علـى البلاط فتطايرت شظايا الزجاج...

ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر...

فتقول له أمى فى استسلام الذين يسألون عما يعلمون:

– وفى ماذا تفكر؟!

– الذين لا تلد نساؤهم أطفالا قد يسرحوهن بالطلاق. وقد يضمون إليهـن امرأة ولودا صالحة لإنماء الـزرع. لكن.. ماذا يعمل الرجال فى النساء اللائى يموت أطفالهن؟

– طيب. وماذا تعمل النساء فى الرجال الذين يموت أطفالهم؟!

– هذا مضحك حقا.. إن المشكلة كما ترين راجعة للقدر.. أليس كذلك يا سـيدتى؟... حـدأة تخطف كتاكيت!! لعنـة الله عليك يا «بكـر»... كم أتمنى أن يعيش لى ولـد واحد لأرد على تهكماته... إنه يؤكد أن البذور بطبعها غير جيدة... ويقسم أن أطفاله يستحمون فى الحارة بماء المطر المتخلف ويعيدون نحت قشـر البطيخ الذى يلقـى من النوافذ بعد أن يلتقطوه مـن الأرض.. وأن أردافهم تبيت عاريـة طول الليل بلا لبـاس ولا لحاف ومع ذلك هأ.. هأ.. هأ.. لم تستطع الحدأة أن تخطف منهم كتكوتا.

– آه...

– آ.. وفـى الصباح.. وفى كل يوم.. أجلس على مكتب الحكومة لأؤدى عملى الغريب. إثبات المواليد فى دفتر المواليد!!

– هيه...

– مائة مولود على الأقل أثبت كل يوم بقلمى المتواضع أنهم اتصلوا بالحيـاة (ثم يقول بكبرياء): يعنى بعد أن يفرغ الله من قيد اسـمهم ورزقهم فـى دفتره.. يأتى دورى أنا!!... أنـا العبد الفقير العاجز الضعيف... يأتى عملى بالنسبة للمواليد بعد عمل الله مباشرة... (ثم يعلوه انكسار وذل وضعف ويقول): كل هذا وأنا لا أولاد لى!

ويطرق، وتسـكت أمى لا تـرد. إنها لا تسـتطيع أن تفرق بين الفلسـفة والهذيان كلاهما فى ذهنها غامض غموض الآلة المعقدة: فخير لها إذن ألا تتكلم... وتعاوده الحماسة بعد قليل:

– الله نفسـه... لا أولاد لـه. لكن... لم يحدث مـرة أن الحدأة خطفت أحد كتاكيته...

– استغفر الله العظيم... سكر وكفر!!

– هلـم لننام. لا تحملينا على المزيد منهما. لعنة الله على «بكر أفندى». إن جو الحجرة الليلة مرتفع الحرارة. لا تنسى أن توقظينى باكرا فى الصباح!

ويعود إلـى كتابة المواليد، وفى المسـاء يذهب إلى الحانة... حتـى إذا ما وضعت زوجته مولودا اسـتعاذ بالله من شـر النعمة. ويلقى على وجهه النظرة الأولى ثم يتراقص فى وسط الحجرة.

– عدد سـكان الأرض زاد اليوم بضعـة ملايين يا عزيزتى. هل تتصوريـن أنك ولـدت ثمانية ملايين دفعة واحدة؟!... سـتختفى الخرائب من المدينة منذ مطلع الشمس...

فتقول أمى فى اعتزاز من ولدت ذكرا وضعف المرأة النفساء:

– كفى... كفى... إن الفرحة تكاد تطير بك.

– أنا لست فرحا. كنت أود أن أكون غنيا لأستطيع أن أفرح. الفرحة الحقيقية التى تتكاثر وتنمو فتفيض على قلوب الآخرين.. آه.. ليتنى كنت غنيا.. إذن لبنيت مستشفى للولادة.... ومستشفى لمعالجة النساء من العقم. ومستشفى لأمراض الأطفال.. ثمانية ملايين ولدتهم اليوم...

وعند عودته ظهر اليوم ودخوله على الوالدة وهى فى فراشها يشرع فى التحدث عن وجوه الأطفال التى رآها فى قطار الضاحية:

– كانوا كأنما ينظرون إلى ليسألوا عن فؤاد.. فى عيونهم نداوة الحب وعلى شفاههم حلاوة الدر أو طعم الشيكولاتة.. اسمعى ينبغى لنا أن نغير خطتنا فى تربية الأطفال. لقد أقسمت ليلة أمس قسما عظيما أن أنتهج معهم نفس الطريقة التى اختارها «بكر أفندى» فى تربية مواشيه. سأجعل هذا الوليد ينام بلا غطاء ويستحم فى الحارة بمياه المطر المتخلفة على الأرض. وسأجمع له بنفسى قشر البطيخ ليعيد نحته. آه... ويعيش!!.. يعيش فقط يا رب!!

وتغرورق عيناه بالدموع: والأم فى الفراش راقدة على ظهرها، بياض وجهها أقرب إلى بياض الثوب. وصدرها مشحون بالدر شأن كل منهل متفجر. وعلى شفتها ابتسامة رثاء وخوف وابتهال.

كان لهمـا فى صحـراء (حلـوان) ثلاثة هياكل صغـيرة لثلاثة أطفال.. دُفنوا على التوالى. فى بحر عشر سنوات فى لحد واحد.

والأم امـرأة غير ولود لا يتلاحق أطفالها ثلاث سـنوات أو أربع بين الطفل والطفل.

ومنظـر الهيكل الصغير مثير للغاية. أتلف أعصاب أبى عشـرة أيـام لم يفق فيها من السـكر. على أنه لم يكـن لأحد من أولاده بل كان لطفل غريب. لكنه لم يستطع أن ينسى القفص الصدرى الصغير «الذى لم يلوثه دخان السجاير ولا كراهة الناس» على حد تعبيره.

ويتغيـب أبى عن الحانة بضع ليال متتابعة بعد ميلاد كل طفل. وعندما تخف الفرحـة. تنبعث المخاوف. وتتمثل له الطمأنينة فى اتصالـه بأصدقائه فى الليل. وتلعلع ضحكاتهم فى الركن المحجوز باستمرار ويهتفون عندما يدخل عليهم:

– حمدا لله على سـلامتك... هل فات السبوع؟! هذا هو ما ظنناه بالضبط!! تعال. تعال!!

ثم يصفقون بكف واحدة لأنهم يريدون أن يفقدوا رشدهم جميعا على حساب أبى فى الليلة البيضاء.

* * *

٢

ولم يبر أبى بوعده ولو أنه أقسم قسما عظيما...

كانا يخافان علىّ من نسيم الحديقة إذا زقرقت به المصاريع فى ليالى الحر. ويدثراننى ويبخراننى ويذهبان بى إلى الطبيب. فلما سألته أمى ضاحكة: ولماذا لا تربيه كما يربى «بكر أفندى»، كما اتفقنا من قبل؟ أسرع غير فاقد حجته قائلا: إنه من العبث أن نغرس الورد بطريقة الصبار أو نغرس الصبار بطريقة الورد. كنت أود ذلك من صميم نفسى لكننى أحافظ عليه حتى إذا ما فقدناه لم يكن هناك مجال لتأنيب نفسى على الإهمال!.

ثم غيرت الأيام نظامها بالنسبة لأبوى تغييرا كاملا. لم يشأ الله أن يدعهما فريسة للقلق فلم يعد أبى يتوقع أن يطلب فجأة إلى (حلوان) لأن ابنه فى حالة سيئة. والأم لا تريد أن تحمل المسئولية وحدها. وأصبح يثبت أسماء المواليد بقلب أكثر طمأنينة وكاد ينسى أنه فى يوم ما كان من المحرومين.

والذى حدث هو أن أمى بعد عامين من ميلادى شعرت أنها حامل. وإذا لم يكن هناك علاقة حقيقية بين العمرين، ولا بين ما فى نفوسنا من مخاوف وما فى الخارج من حقائق – لكن يحدث فى الغالب أن عود الثقاب الوحيد كثيرا ما تتصدى له الريح فتطفئه ما دمنا محتاجين إليه.

فـكأن الجنين الذى نبت فى أحشـائها أصبحـت حياته ضمانا لحياتى وقوته رصيدا لقوتى وإن كنت أنا تحت نور الشمس وهو لا يزال فى ظلمة الأرحام. وأكد أبى أن هجمات السـعال خفت وكفت عنى. وأن الإسـهال والإمساك تصالحا وتلاقيا معا فمنحانى طبيعة سليمة. وأن بكائى فى الليل لم يعد يزعجه كثيرا. كل هذا لأن أمى قد حملت... هل تسـتطيع أن تدلنى على العلاقة؟! وشيئا فشيئا، وعلى التدريج نسـيا الأجل الموعود الذى كانت الحدأة تخطف فيه كتاكيتهما. ونسيت الهياكل الصغيرة المدفونة فى صحراء «حلوان» لأنه ما حـل الموعد الثالث لميلادى حتـى انتعش البيت بصرخة لمولودة أخرى... هى أختى (بدرية).

ولم يبر أبى بوعده – مرة أخرى – ولو أنه أقسـم قسما عظيما.. لا فـى طريقة تربيته للطفلة ولا فى طريقة سـلوكه فى الحياة. ظل كما هو. رجلا ذكيا وسـيما قـوى البنية والشـخصية يثبت بقلمه أسـماء المواليد فى النهار ويقرأ الصحف والمجلات وبعض الكتب فى أى وقت ويرجع إلى البيت عند الظهر. حتى إذا ما هبط المساء ذهب إلى الحانة... إلى حيث يشـربون ويتسـامرون ويعلقون على حوادث النهار بإدراك ليلى مخدر.

ولم تسـتطع أمى أن تحوله عن منهاجه كان يتركها وحيدة أيام زمان قبل أن تلد ويسهر فى الخارج. يفعل ذلك فى ليال من طبعها أن ترعب. من تلك التى شرع الناس فيها شرعة التجمع.. هى ليالى

الحزن. حين يصاب البيت فى يوم من الأيام بالخرس عندما يخطف الموت طفله الوحيد.

ولـم يكن أبـى يتقبل عزاء. كان يذهب إلى هنـاك ليتعزى. فى الركـن المحجـوز باسـتمرار فى أقصـى اليمين. ويتلقـى كلمات التسـلية بطريقة كانت تنسـيه الهموم. كان معظمها سـخرية من المـوت. وبعضها نكتـا تنتزع الضحكات من القلـوب المجروحة. وكانـوا يبذلون له الشـراب على نفقتهم عدة ليـال. ثم يركب أبى قطار الضاحية سـكران رزينا محتقن الوجه وبين شـفتيه سيجارة ويفتـح البـاب الخارجى بالمفتاح الخصوصى ثـم يدخل فى الوقت الذى تكون فيه أمى جالسة إلى نافذة السلاملك. منصته إلى حديث الريح والشـجر. وكفها متكورة تحت خدهـا. والدمع متجمع بين الكف والخد. وإهاب وجهها ملتهب قليلا...

وتخف أمى لملاقاته فلا تأخذ منه إلا الملامة.

لم يكن يقدر معنى الحزن والوحدة إذا اجتمعا.. ولا سكون الليل مـن مناغاة الأطفال فـى البيت المعتكف الـذى لا تدخله إلا أقدام أصحابـه. وكثيرا ما كان سـكره يهزه فيكلفهـا أن تبذل له حنانا زوجيا. وتلك مهمة شاقة سـمعت النساء يتحدثن عنها بضجر من يجبرونه على الضحك وهم يجلدونه بالسوط.

ونحـن لا ندعـو ولا نبتهل ولا ننـذر النذور إلا فـى الأزمات. نطلب المعونة ونعد بدفع الثمن. حتى إذا ما أخذنا السـلعة نسينا « الكمبيالة ». وعندما تتجـدد الحاجة لا يجد الطيبون والرقعاء على

السواء فى نفوسهم حرجا من طلب المعونة مرة أخرى. وما دام الذى نطلب منه واحدا لا ثانى له فإننا نتجه إليه حتى ولو كنا مدينين!!

حين بلغت السادسة من عمرى كانت (بدرية) أختى فى الثالثة من عمرها. وفى صيف سنة من السنين خررت صريعا تحت حمى التيفود. ولما كان أبى قد ربانى على طريقة غرس الورد فى الحديقة كنت رقيق الحال. حتى إن الطبيب رآنى يومئذ غير أهل لخوض هذه المعركة. وقال متظرفا ليخفف الآلام عن قلب الأبوين:

– لماذا لم يختر هذا الصبى اللطيف مرضا يتناسب مع صحته؟ مسكين.. (واستدرك) لكن... لا بأس.. وإن كانت عربات الأطفال لا تشحن عادة ببالات القطن المحلوج...

ولم يكن الطب يبذل معونة إيجابية للذين يصابون بهذا المرض فى ذلك الحين. ولذلك فإن المصاب به كان يجتاز التجربة بإمكانياته الشخصية فحسب.

ولم يطق أبى أن يرى هذه الحال ولا أن يسمع هذيان المحمومين. كان هذيان السكارى أخف وقعا على قلبه بل كان هو العامل الذى ينسيه المتاعب. ونشب الخلاف بينه وبين أمى وسهرا ليلة يذكران ما فات. وأطل عليهما الماضى المشوه من نافذة الليل البهيم. ولم يستطع أحدهما أن يبث الآخر مخاوف نفسه وإن بدت فى العينين. فظللهما الصمت. والصبى فى الفراش بطنه منفوخ، ورأسه فى وهج. ونظرت أمى إلى أبى ولمعت عيناها فجأة وبشراسة قوية ثم قالت له:

– ابــق فى مكانك أنت أيها الكــذاب... لا تأت معى.. حذار... ابق إلى جوار الصبى وســأذهب إليه وحدى... لا تأت حتى لا يقفل الباب...

وتركته وخرجت كأنها ســتدرك قطــارا. وظن أبى أنها أصيبت بلوثة، فتبعها عن بعد. حتى رآها فى الحجرة الأخرى راكعة على البلاط العارى بركبتين تزحزح عنهما الثوب ورأســها قد سقط عنه المنديل وحلقها جاف ودمعها جاف. تدعو الله ألا يتلف ما يخصها فى ابنها (فؤاد) من أجل ما يخص زوجها منه...

– أنــا امرأة... ومســكينة يارب!! امرأة ومســكينة!! (هكذا كانت تهتف).

ودخل عليها أبــى وأنهضها من جثوها. وقال لها بغيظ يخالطه رثاء. وضعف متدثر فى قوة:

– أنت كافرة أيتها الســيدة... هل تظنيــن أنه نصير الصالحين وحدهــم؟!.. قومى من على البلاط.. لمى شــعر رأســك المنفوش.. إن العاصى إذا طرق بابه مرة بعد مرة فإنه يفتح له... (وســكت ثم أردف): تذلــل العصاة أعذب فى ســمع الله من بكاء النســاء!! (ثم صرخ): هلمى... اذهبى إلى ولدك...

وفى صباح اليوم الذى أعلن فيه الطبيب زوال الخطر عنى خرت (بدرية) محمومة فى مسائه. وفى هذه المرة بدت أمى أكثر رباطة جأش.

أو لعلهـا كانت مذهولة. أما أبى فقـد أفلت منه الزمام وانخرط يبكى بشـكل مرعب. إن بكاء الأقوياء مخيف كما لو سـمعت أسدا يعوى عواء القط. وأخذ يعدو فى الشقة كأنه ملسوع، حتى استقر به الدوران فى حجرة أخرى. نفـس الحجرة التى ركعت فيها المرأة المغلوبة. دخلها الرجل القوى وجثا على ركبتيه. وحاول أن يقول شيئا فلم يجد. فنهض وعيناه مبتلتان بالدمع وفمه جاف من الريق.

وعـادت الهياكل الصغيـرة تظهر لهما فى الأحـلام. ورأى فى عينى «بكر أفندى» صديق الحانة نظرة رثاء له فود لو أنه تهكم.

علـى أن هـذا الذى حدث لـم يجعله يبر بوعـده كأن المصائب تصبرنـا على المصائب. والجرح فى اليد قد يضجر وقد نحتمله فى اليد والرجل.

وكنت فـى دور النقاهة فى مثل صفرة عود القمح وقت الحصاد. ليـس فى وجهى إلا البوز والعينان. أجلس تحت شـجرة الجوافة فى الحديقة الصغيرة أمام البيت أداعب الكلب وأنظر إلى السـحاب وأفرك عينى لأرى الأشـياء من حين إلى حين. أما (بدرية) فكانت فـى الداخل. وكانت بطبعها رعناء «شـعنونة» حادة الصوت عالية الصـراخ لا تفتر عـن وصف الأشـباح التى تراها. وتقوم بنفسـها لمطاردتها فى الليل فتمسك أمى بثيابها وهى تبكى.

واشـتد بى السـعال ذات ليلة و(بدرية) لا تـزال مريضة فجن جنـون أمى. وأحسـت كأن خطرا داهما يتسـلل علينـا من الباب

فسهرت تبكى. ولما عاد أبى فى الليل بعد منتصفه وقعت بينهما الواقعة. قالت أمى:

– لن أعيش معك... خذ ولديك إلى المستشفى لأرحل أنا.. سأجلس على قارعة الطريق وأتسول.. إن الشحاذ الذى هناك أسعد حالا منى...

فيرد عليها بشرود السكارى وهدوء الأقوياء:

– ماذا أصابك أيتها الحمقاء.. هل يغيب العقل دفعة واحدة هكذا! ويتمدد على كنبة قريبة من السرير ويضع رجلا على رجل ويبدو وركه الأبيض. ثم ينظر إلى المصباح المتدلى من السقف بعين لا تطرف. وتقول أمى:

– لقد أقلقنا الله فى سمائه بطلب الأولاد... فلما جاءوا...

– هربنا منهم؟!.. ألسنا نعيش معا حتى الآن تحت سقف واحد؟!.

– إنك تكذب على الله...

– أنت تلوثين عظمته بأحكامك التافهة. إنه غير غضبان... أنت وحدك الغاضبة.. أتظنينه يحكم على الناس بهذه الطريقة؟.. مصيبة!!

وجعل يهز ساقه المعلقة على ركبته وهو مستلق على ظهره. ويردد بين الفينة والفينة على هفات النسيم وهزيز الشجر قوله باستمرار:

– أنتم لا تعرفون عظمته... لا تعرفون!!...

وأخيرا ضجرت أمـــى. فأقبلت عليه فى غيظ لا يعرف الاحترام ثم صرخت فى وجهه:

– إن فســقك أيهـــا الكذاب هو الذى ابتلى هــذا البيت بكل هذه المصائب. تب يتب الله عليك...

وخرجــت تجرى إلى حجــرة أخرى. وظل على ظهــره كما كان محملقا إلى الســقف. وخيــل إليه أن المصباح قد اســتحال قمرا وأن النجوم فرت من السماء. ثم أخذ يهمس وكأنه يحلم:

– شــتمتنى.. لقــد طال لســانها فى الأيام الأخــيرة حتى كأنه تمدد!! شتمتنى... من المحتمل أن تضربنى فى العام القادم... غدا نناقش القضية.

ثم أوى إلى فراشه فى صمت لا ينبس.

وفى الصباح خرج دون أن يتكلم وجلس على المائدة يأكل بعنف ويدفع الأطباق ويكسر الخبز بقوة من يكسر شيئا غير لين. وبكت أمى طــول النهار. إنها أول مرة تشــتم فيها أبـــى. لكنها كانت أســيرة أحلامها دائما. وإذا رأت مناما فــى الليل ترقبت وقوعه فى النهار.

قبــل موت أبيها رأت برج الحمام فى دارهم يســقط كأن شــيئا اقتلعه من أساســه. ورأت الحمام يطير فى كل صوب. فمات الرجل وتفرق بعده الأبناء وانقسمت الدار إلى عدة دور...

وقبــل زواجها رأت أن فــى يدها فردتى مقــص وكأنها تركب واحدة على الأخرى وأدى المقص وظيفته ففرحت. وهكذا.

ومنــذ ليلتين اثنتين رأت أن عينها رمداء وأنها تحس ألما وأنها تشد عليها عصابة غير نظيفة. فلما جلست تتأوه سمعت هاتفا يقول لها من حيث لا تراه:

– نظفى العصابة تسلم العين. إن منديلك ملوث!!

ومن يكــون المنديل إلا زوجها؟! ومن تكــون العين إلا الأبناء! آه... ليته يتوب عن السكر والحب أو واحد منهما أو هما معا... إن له قلبا لا يشــيخ أبدا دائم الخضرة مثل أشــجار الكافور. لقد غضب منها. خرج لا يتكلم. وعندما يعود فلن يعود معه مرحه. وســيضع قرطاس الفاكهة فى صمت جائر ويدخل ليخلع ملابسه.

وقــد حدث كل هــذا. وأكلا بلا كلام. وعند دخول المســاء ركب القطار إلى العاصمة فجلست وحدها تبكى.

* * *

وكان الركن محجوزا فى الخمارة ككل مســاء والأصدقاء يتلفتون كأنهم يبحثون عن البقية. وأحد الســكارى يداعب بائعة يانصيب. وصبى خادم يكســر ثلجا فى إناء. وارتفع صوت «بكر أفندى» عاليا جهوريا يقول عندما لاح شبح أبى من المدخل:

– ها... لقد حضر... أتقى الفاسقين.

وابتسمت عدة أفواه أمامها كؤوس، بعضها فارغ وبعضها مليان. وزحف أبى بكرسية فأكمل الدائرة ثم اتصل الحديث الذى كان قد انقطع، فقال من كان يتكلم:

– ... وهكذا تاب ذلك السكير!!

قال أبى وهو يبتسم:

– تتكلمون عن توبة سكير؟!

فقال ثالث:

– نعم. عن الخرافة التى تروى فى كل خمارة.

فقال «بكر أفندى»:

– كل شىء جائز.

فاندفع أبى يقول لهم:

– فى نيتى أيضا أن أختم ليالى معكم بهذه السكرة. سأتوب.

فقهقه واحد فى الركن حتى كاد يتقيأ. وجأر «بكر أفندى» بآهة شديدة وقال بعدها: «أنا عارف السبب». على حين انطوى أحدهم فى جلسته كأنه شىء لين حتى أراح ذقنه على صدره ثم أخذ يهز رأسه فى تفكير.

وصمت أبى حتى تسكت الضجة لكن الرجل المطرق همس قائلا بوقار:

– هاكم شيئا جديدا... (ثم أشار إلى أبى قائلا): هذا خروف من خراف الله يعود إلى حظيرة الله!!

فارتفع الضجيج مرة أخرى. وغلب الضحك على الكلام. وسكت أبى لا يتكلم. وطلب له أحدهم كأسا. ثم جأر «بكر أفندى» يقول:

– أنا عارف السبب.. هو حكاية الحدأة والكتاكيت... ها.. ها.لكن ما العلاقة بين الشيئين أيها الإخوان؟

فقال أحدهم وقد غلبه الحماس:

– وهل هذا عيب يا مغفل.. حاول أن تجد سببا معقولا لأى شىء... وعندئذ ستفعله ببساطة...

فانبعثت أصوات مستفهمة:

– مثلا...

فأجابهم بسخرية:

– مثلا؟!... ها... هذه الحالة التى نحن فيها. مجيئنا إلى الخمارة... لو لم يكن سبب مجيئنا إلى هنا معقولا جدا ما سعينا على أظلافنا. ليكن معقولا عندنا وحدنا!! ليكن!!... اقنع نفسك بالعكس تجده معقولا أيضا، وعند ذلك ستظل فى بيتك لا تخرج منه.

قال أحدهم:

– كلام فارغ.

– الفارغ على وجه الأرض عقلك وجيبك. أنت غبى مفلس. اسمع: العقيدة يا بنى لا تقاوم. وقد يصعب عليك زرعها لكن اقتلاعها أصعب.

قال «بكر أفندى» معلقا بخشونة:

يعنى من الممكن أيها الفيلسوف أن تكون توبة السكير سببا فى نجاة أولاده من الموت؟ أفدنا أفادك الله!

فسكت الفيلسوف ريثما يفكر. وصب كأسا لأبى على نفقته ثم استرخى فى قعدته كأنه وسادة مثنية. ثم سأل:

– لماذا يقبل الله دعوة المومس واللص والسكران؟ لماذا؟

وهل هذا سؤال؟ سميع مجيب.

– باستمرار؟

فأجاب «بكر أفندى» بإصرار:

– نعم باستمرار. ولماذا لا؟!

– لأنه يسمع كل دعاء ولا يجيب كل دعاء.

– وافقنا! إذن فلماذا يقبل دعوة المومس واللص السكران؟

– إنه يربت على أكتافهم كما تربت على كتف ابنك العاق. حتى إذا لم يقومه التربيت قومته باللكمة.

– هاهاها... سكران والله العظيم. طيب. وإذا كنت تجد لأعمال الناس أسبابا معقولة فلماذا لا تحاول أن تجد لاستقامتك سببا معقولا فتتوب؟

– السبب موجود. لكنه كالآلة الخطرة لا أستطيع استعمالها.

– هيه...

– هل يؤلمكم أن ننقص واحدا. دعوا الرجل لحاله فإنه ينشد لقلبه الطمأنينة. تحاولون أن تقتلوا مخاوفكم فتقتلوا معها أنفسكم.

– فقال أبى:

– كحكاية إحراق القمح لتطير عنه العصافير.

– تمام. كأســا أخرى من كؤوس الوداع يا صديقى... اسمع.. أنا شــخصيا أحس بالفرح كلما نقص قطيعنا واحدا، لأنه من الجائز أن يلحقنى الدور.

فسأل «بكر أفندى» فى شبه حزن:

– ولا يكون هناك خمر ولا سكيرون... مستحيل!!

فرنت فى جوانب المكان ضحكة إجماعية لكنها قصيرة ما لبثت أن تلاشــت كما تتلاشــى الموجة. وأعقبها صمت طرزت حواشــيه النظرات وزفــير التدخين ووقع كعوب الكؤوس على رخام المناضد. كان أشــبه ما يكون بالأســى. فهل نأســى على مخازينــا وعيوبنا وأمراضنا إذا حاولنا أن نشتبك معها فى معركة حاسمة؟!

ثم نسى الموضوع الشخصى. موضوع أبى. وانخرطت الجماعة فى توديع حار لم يقطعه كلام كثير. كان عملا خالصا صرفا. كان شــربا مســتمرا أحال فيلســوفهم العظيم إلى مخمور عظيم، فانطوى على الكرســى كما تنثنى الوسادة، واضعا ســاقا على ساق وشرع يدندن بأغنية من أيام شبابه كانت تغنيها الحبيبة فى أحضانه. وأين هى الآن؟ قال:

– إنها هيكل عظمى يحتضنها هيكل عظمى آخر.

فجاء صوت يقول:

– هيكلك يا أستاذ؟ هأ.. هأ.. هأ..

– عسى أن تكون أبواب السماء مفتوحة هذا المساء لدعاء السكارى....

وسأل أبى:

– هل تذكر التاريخ الذى طلبت فيه من الله فاستجاب لك؟

فأجابه:

– هو تاريخ ميلاد ابنى. وقد مضى منذ شهر.

– آه... إذن... على أن أنتظر أحد عشر شهرا أخرى. ليتنا لا ننسى. لكن...

وفى أخريات الليل عانق السكارى رجلا يودعونه. وبكى بعضهم. هل رأيت سكران يبكى؟!.. وانصرف أبى لا ينظر إلى الوراء كأنه يخشى أن تجبره وجوههم على عودة قريبة. وعندما عبر عتبة الخمارة سمع صوت «بكر أفندى» الجهورى الغليظ يصيح بأعلى ما فيه:

– خروف من خراف الله عاد إلى حظيرة الله...

وتخللت هذه الكلمات ضحكات كثيرة.

* * *

٣

وفى الحجرة العلوية المطلــة على فضاء الحديقة، الوحيدة على السطح كانت حركة إصلاح وترميم قائمة على قدم وساق. ثم جددت دورة المياه القريبة منها. ومن نافذتها الشــمالية بدت للعين مشاهد ساحرة. الجبل والشجر وطريق المرصد وشريط السكة الحديد.

وعندما يســكن الليل تهفهف أرواح ملائكية على مقربة منها. وكان أبى يراها وحده. يراها بقلبه وجنانه ويناديها بلســانه ويمد إليهــا كفين تبدوان صغيرتين ككفوف الأطفال بالنســبة للقوة التى يستنجد بها أبى.

كان أبى مستميتا فى توبته. وفرحت بذلك أمى وإن ظل مخاصما لها لأنهــا هى التى حالت بينه وبين الخمر. كان ناقما نقمة اللص علــى القمر لأنه يريد الظــلام. وكان يؤمن بالفعل ورد الفعل، لذلك أخذ يجهز للتوبة أدوات كما تحشد اللعب للطفل حتى لا يبكى فى غيبة أمه.

وفــى خزانة خشــبية فى الحجــرة العليا وضــع أورادا وكتب تصوف وســجادة وســبحة. وأخذ يتردد على الأضرحة ويستمع إلى المواعظ ويسأل عن الفرق بين السنة والواجب. وبدا عليلا متضعضعا مسكينا. وحدثتنى أمى أنه كان يبكى فى وحدته.

كان مشتبكا مع نفسه فى عراك غير متكافئ، يريد أن ينقى دمه من الكحول وأن يفصل نفسه عن ذكريات أعوام طويلة. وأن يعتاد شيئا فشيئا على أن «يرى الليل وهو وحيد» كما كان يقول. ولما سأله بعض الناس عن معنى ذلك أكد أن ذلك شىء لا يحسه إلا الذين جربوه فحسب، فالمريض والسكير والعاشق يصعب جدا عليهم أن يقابلوا الليل وجها لوجه دون أن يكون معهم أحد.

لذلك فإن تسبيحاته كثيرا ما كانت ترتفع بطريقة هستيرية ويظل فى الحجرة العليا يفعل ذلك حتى يهبط فى أخريات الليل. كان كالذى يدفع المخاوف بالغناء على الطريق الموحش. وكثيرا ما كان يلعن الماضى لا لأن الحاضر أصبح حلوا نقيا صفيا، بل لأن الماضى القوى لا يزال مسيطرا على حاضره لا يريد أن يترك زمامه.

وفى هذه الأثناء كنا نشب ونترعرع أنا و(بدرية). واتصلت رعايتنا بأمنا أكثر وأكثر حتى تخيلت أن أبى غائب أو أنه غريب.

وكثر تردده على الأطباء واستحال وجهه الوردى إلى شىء أشبه بلون المنزوفين. وحادت طبيعته عن «المتوسط» فكانت أمى لا تراه إلا مستسلما أو جامحا.

وفى إحدى الليالى بكت له أمى بدموع غزيرة:

– لا أحب أن أراك هكذا!!.. إن صحتك تسوء. كنت تريد أن يعيش ابنك ولو جمعت له قشر البطيخ من الحارة... وأنا كذلك بالنسبة إليك... أنت...

ثم قطعت كلامها وانخرطت فى البكاء. فقال أبى وكأنه يحلم:

تريديــن أن أعود إلى ســيرتى الأولى؟... هيه ... أنا أشــعر كأن القوة تنسحب من جسمى كما تنسحب الجيوش فى الظلام... أبات وأصبح فأرى موقعا خربا...

وأطرق وأشــعل ســيجارة. وكانت ذقنه طويلــة، وهندامه غير معتدل، والســبحة أمامه على المنضدة القريبة. وظلت أمى تســتمع لكنــه أخذ يدخن فى صمت دون أن يتكلــم. وعندما دخلت عليهما أحســت أن فى جوهما شــيئا غريبا حين نظرا إلى فى وقت واحد. والتقت نظراتهما من فوقى فصرت كأنى تحت غصنين متشابكين ثم ما لبث أبى أن قال:

– كل هذا من أجلكم... نعم.. لكن... منذ أربعة أشــهر أو تزيد وأنا أبحث عن العلاقة بين الشــيئين – كما قال «بكر أفندى» – فلا أجدها. ما العلاقة بين الخمارة والحدأة والكتاكيت؟ و...

فقاطعته أمى مشــفقة عليه قائلة بانكســار من يجبر على اتخاذ قرار:

– ليس هناك علاقة... أبدا.

– تجاملينني؟! (وتتنهد).

فأحســت أمى كأنها أمام طفل. فقد كانت شــخصيته مطمورة تحت ركام من الأنقاض لا يعرف جنســها. فعادت تقسم أنها تقول الحقيقة وأنها تفتديه بنفسها وبنا أيضا إذا لزم الأمر. ثم قالت:

– المسألة مسألتك الشخصية. لا تعذب نفسك!

وبات ليلته فوق. فى الحجرة العليا. لم يشأ أن ينزل. كان يريد أن يختلى بأفكاره. على أن الأرق كاد يجننه. ولم تخفف الأوراد ولا كتب التصوف ولا سير الصالحين من حدة الصداع الذى يصاحبه.

وكان يتسلل فى بعض الليالى إذا كان فى المدينة، فيمر على الخمارة فى تلصص ذليل ومن وراء الزجاج المقفل فى الليل البارد يلقى نظرة شاحبة على الركن. وقد تصل إليه قهقهات «بكر أفندى» الطويل العملاق الجهورى الصوت. ثم ينسحب فى رفق ذليل أيضا قاصدا إلى محطة القطار حيث يركب إلى (حلوان) وتتهاوى على رأسه المنخوب عدة خيالات: فيها رجل يعبر باب الخمارة بعد غيبة ستة شهور هزيلا نحيلا مريضا فيهلل فى وجهه الندماء ويصفقون ويسقونه كأس التحية كما سقوه كأس الوداع. وبعد فترة يبدأون فى التنكيت عليه والمناوشات معه، وينثنى الفيلسوف النحيف كالوسادة ليضع للقضية «فقها» جديدا... فيقول شيئا ما!

وفى خيالاته أيضا حدأة وكتاكيت وأطفال يمرضون. وقوة خفية عملاقة أصلها فى الأرض ورأسها فى السماء تتربص به إن عاد إلى الخمارة لتسقط عليه «بصقة» واحدة فيصاب بارتجاج المخ. ويغيب عن الوجود. ثم ذكر كتب الأوراد والأدعية...

ثم تحلب ريقه حين ذكر النبيذ. وعشوة أول كل شهر على المنضدة بين الإخوان. والسيجارة تحترق وحدها وهو يقص

«حدوتـــة». والخزعبلات اللذيذة التى تصنع إطارا أجمل من الصورة والتى هى قوام كل الملذات...

وتوقف على ناصية مظلمة بالقرب من «المزلقان» والجرس المتواصل الدقات ينبه المارين لخطر القطارات. وسور إحدى الوزارات تئز من ورائه الأشجار. ومحطة (حلوان) قريبة منه. وكان يسأل نفسه:

– هل أعود؟! إنهم أوحشـونى!! لماذا لا أدخل فأسلم... وأراهم وأخرج. أو أجلـس فآخذ فنجالا من القهوة. أوحشـونى! آه... إن المبادىء تكلفنا كثيرا. هل المسألة مسألة مبدأ أم هى بر بوعد ووفاء بنذر؟ لا أدرى!

ثـم يتحرك... نحـو المحطة. عائـدا أدراجه فيدخـل حلوان النائمـة. وتكون أمى نائمة أيضا فيسـتلقى فى الفراش فى صمت، ويشـعل سـيجارة وهو راقد وتتوهج قمتها فى الظـلام. وقد يوقظ دخانها نوم أمى... وينفخ وينفخ، ثم يطفئها ويستسلم للأفكار.

***

على أن أمى كانت تحب الفريقين.

كانـت كمن أجبرته الظروف علـى أن يختار بين جارحتين من جوارحه فظل ممسـكا عن النطق لا يسـتطيع أن يفاضل بين السمع والعـين. وعلى الظروف التى أجبرته، أن تحكم هى بالنيابة عنه. فليعد أبى إلى معاصيه وليكن ما يكون، فقد أصبحت مغلوبة.

وفـى إحدى الليـالى غاب فى الخـارج. وظلت أمى سـاهرة فى

فراشـــها. وكانت تخرج بين الحين والحـــين إلى غرفة أخرى لتلقى نظرة على أنا و(بدرية) فإذا بنا نتنفس فى هدوء فتعود فى صمت. وصفر القطار الأخير قبل دخوله المحطة فنفذ صفيره إلى قلبها كأنه المخـــراز. إن لم يعد فى هذا القطار فـــإن مكروها يكون قد نزل به. يا ويحهـــا!.. إنها كحارس الكنز يحس دبيب اللص مع كل نأمة. حتى سمعت بابا يصر. وعادت إليها الذكرى القديمة. وتوقعت أنه سيدخل عليها ورائحة الخمر تفوح من أنفاسه لكنها سمعته يصعد إلى فـــوق حيث الحجرة التى اتخـــذ منها «خلوة» للعبادة. كان فيها فراش صغيروأدوات كثيرة. ويســـتطيع أن يتخـــذ منها مرقدا. وقد فعل. وبات هناك. ولم تســـتطع أمى أن تقطع بشىء. لكنه بدا وقت الصباح منهكا أشد شحوبا مما كان، وإن ظهرت نفسه أكثر قوة.

وبدا طوال مدة الإفطار فى ربكة من يحمل خبرا يريد أن يتخفف منه ثم خرج إلى عمله.

وهبط المســـاء فتسلل وخرج ولم يكن فى يده سبحة ولا فى جيبه كتـــاب. وداعبـــه الكلب عند البـــاب الخارجى فركلـــه فعوى وعاد فانزوى تحت شـــجرة الخروع. وكانت أمى فى نافذة السلاملك تراه من خلال الأغصان وفى عينيها دموع تحاول أن تغلبها.

وصر الباب – بعد منتصف الليل – وعادت الذكرى القديمة وتوقعت أمى أنه سيدخل تسبقه أنفاسه المخمورة. لكنه صعد إلى فوق.

وظلت تتقلب ولم تعد تدعو الله!! وبدت المسألة كأنها تستعصى

على الحل. ثم فرضت أنه يسهر لكن فى غير الخمارة. وعند الصباح جلسنا إلى الطعام وكان أبى فى خمود وانحلال كمن قضى ليلة فى الملذة يبتسم لكل كائن ولكنه خجلان.

وفجأة وهو يلبس ملابسه قال لأمى بطريقة من يريد أن يتخلص من جثة فيرميها فى أى مكان. قال لها وهو يبتسم:

– لماذا لا تسألينني عن سبب غيابى كل ليلة؟!

فلم ترد. وانطبعت على شفتيها ابتسامة عميقة المدلول وفى عينيها عناء وتسليم. فقال وهو يضع الطربوش على رأسه مغطيا به معظم جبينه:

– (رجعت «ريمة» لعادتها القديمة)... (وكأننا يا «بدر» لا رحنا ولا جينا..).

واندفع نحو الخارج ينهب الصالة بخطوات واسعة وهو يدندن المقطع الأخير ويطوح فى الهواء عصا خيزرانية عوجاء:

– «لا رحنا ولا جينا... لا رحنا ولا جينا...».

ثم قص على أمى تفاصيل ما وقع ليلة من الليالى التى يعود فيها بوعى لا بأس به.

* * *

لو أننا نشعر بالزمن لضقنا بأعمارنا ذرعا...

وهذه هى التجربة التى أحسها أبى فقد عاش يحسب الساعات كأنه «منبه». كان يعبر الزمن وهلة بعد وهلة كمن يعد أحجار البناء فى سور طويل لا ينتهى أبدا. وكان يشعر بالدوخة وبالأسى.

ويخيل إلى أن كل ذلك لسبب مجهول. والسبب الحقيقى واضح لكنه يتنكر. كان يضع على وجهه قناعا ليكون الأسى أنكى وأبقى.

وقهقه أبى وهو يلمس هذه الحقيقة. ثم قال:

– هكـذا ندفن أحبابنا ونبيت ونصبح فيخيـل إلينا أننا لم نرهم منذ أجيال... ها... هذا لأننا نعيش بعدهم فى كل وهلة... آه... نعد أحجار البناء فى السور الطويل... الطويل... الذى لا ينتهى أبدا!!

ثـم أحس كأنه لا ينتظر شـيئا. وما معنى ذلـك؟!... لابد لنا أن ننتظـر شـيئا ما فـى حياتنا وإلا اسـتحالت إلى فراغ قاتـل. والذين ينتظرون دورهم فى صف القتلى خير من الذين لا ينتظرون شيئا أبدا. آه... ومنذ ترك أبى الخمر شعر كأنه لا ينتظر شيئا فضاق بالحياة.

يحس النوم فى السـاعات التى تتوهج فيهـا يقظة الناس. وفى الليل والناس هاجعون – يؤرقه الصداع والتفكير.

وكانـت ليلة ندية. ونسـمات الخريف تتنفس فـى جو المدينة تنفسـا لا مثيـل له. وأبى فى قطـار (حلوان) يضرب أخماسـا فى أسداس ويحاول أن يجد لموقفه تفسيرا منطقيا.

ثم ابتسم لنفسه:

– لا داعى للتفسـير المنطقى أبدا. إن المنطق يتلف الأشـياء.. لماذا وضعوه؟! وإلى أن يثبت أن هناك علاقة بين الكأس والحدأة والكتاكيت فسأظل أشرب... طيب. لماذا لا يموت أولاد «بكر أفندى»؟

ثم ولج أبى باب الحانة وبدا على باب العتبة...

وارتفع صوت جهورى غليظ عال يقول:

– الحقوا... ها قد عاد إلينا أتقى الفاسقين!!

وكان المتكلم هو «بكر أفندى». ولم تنفتح الأفواه دفعة واحدة لأن شيئا من الذهول خيم على أصحابها وانثنى الفيلسوف النحيف كأنه وسادة حين وضع رجليه على الكرسى وشبك حولهما ذراعيه وبدأ يقول بصوت كأنه صادر من عالم بعيد:

– هذا خروف من خراف الله...

فردوا كما ترد «المجموعة»:

– فر من حظيرة الله!

وشعر أبى بالخزى... كالصبى الغاضب المضرب عن العشاء حين يتقدم بلا دعوة وقد كان أبواه يرجوانه فلا يجيب. ثم شرب كأس التحية على حساب الفيلسوف. وبدأوا يشعرون أن الدائرة قد كملت فقد كانوا أشبه شىء بالطوق المفتوح. وجعل أبى يتحدث عن ذكرياته أيام التوبة وكيف كان شنيعا جدا فى العمل وفى البيت. كان لا يفرق بين الذكر والأنثى وهو يقيد الأسماء فى دفتر المواليد وكان لا يحسن أن يخاطب أحدا.

قال الفيلسوف:

– وقد أمرنا الله أن نعامل الناس بالحسنى. ولما كان من الضرورى... آ... من الضرورى... أن نجد سببا معقولا لكل شىء نعمله...

فأكمل أبى:

– فلنعد إلى ما كنا فيه حتى لا نؤذى الناس. ذلك أسهل.

وقال أحدهم:

– على أننا كنا ندعو الله دائما أن تعود إلينا.

وسأل آخر وصوته متلعثم:

– ولماذا يستجيب لدعاء من هذا النوع ولا يستجيب لآخر على عكسه؟ (وحملق بعينين حمراوين يبحث بهما عن الإجابة فى وجوه السامعين).

فنظروا جميعا إلى الفيلسوف الهادئ بالقرب من الركن حتى أجاب فى ابتسام:

– لو توفر لديه سبب معقول لاستجابة العكس لفعل... المسألة من أولها إلى آخرها تنحصر فى توفر السبب...

فضجوا بالضحك وسأله أبى:

– وما رأيك من جديد فى قضية الحدأة والكتاكيت. هل هناك علاقة بينها وبين ما نفعله الآن؟

وكان على وجهه خوف يريد أن يخفيه أدركته قلوب الجماعة وإن لم تره عيونهم.

فقال أحدهم وهو يصب له خمرا:

– هل لا تزال خائفا؟!... اشرب... أطعمهم كما يطعم «بكر أفندى» مواشيه وعندئذ يصبحون مثلهم. هل تعلم ما حدث لهم؟!

– لا.

– لقــد رأت أمهم أحدهم ممســكا بحدأة وكان يقطم من رأســها وهى حية!

ها... ها... ها...

*** * ***

٤

بينما كانت هذه الفترة من حياة أبى تنضم إلى ماضيه ليلة فى إثر ليلة كان الزمن يتمخض عن حادث غريب بالنسبة لأولاده. حادث لم يكن لهم على بال.

فقد أعلنت أمى ذات مساء أنها حامل...

وقهقه الرجل قهقهة المفلس حين تمتلئ خزانته بالمال. لكنه كف فجأة حين تذكر أن مستوى المعيشة آخذ فى الانخفاض بالنسبة للأسرة. الأفواه تتكاثر والدخل ثابت لا يزيد. ومطالبه الشخصية تنمو يوما بعد يوم. وإذا اشتبكت معه أمى فى عراك وحاد عنها عادت إليه ذليلة. شخصيتها ذائبة فى شخصيته ذوبانا شديدا.

حقيقة إننا نملك البيت الذى نسكن فيه. لكن ذلك لا يكفى. فأبى مرتبه ضئيل وأمى لا دخل لها. وحياتهما الاقتصادية قائمة على الستر خالية من الاحتياط. فإذا وقعت فى البيت مفاجأة ما على غير انتظار كانت أمى تلجأ إلى حلاها الذهبية فتودع إحداهما فى بنوك الرهون ثم تستردها بعد مدة.

وفى الوقت الذى بلغت فيه سن التاسعة وكانت (بدرية) فى السادسة، ولدت أمى طفلة سمتها (سميرة).

كان ذلك يوم جمعة. استيقظت من النوم فسمعت بكاء صغير

يخــرج من حجرة أمى. ورأيت بعينى شــبه ما كان أبى يعمله أيام ولــدت أنا. رأيته يتراقص مــن الفرح كما تتراقص كــرة الكاوتش بين الكف والأرض. خصوصــا عندما لمح جمال وجهه على وجهها الصغــير. كان فى الأصل مغربيا صافــى اللون. وحين يبدو صحيحا يخيــل إليــك أن ماء العنب يترقــرق خلف بشــرته. وأمى مصرية صفراء فى لون حبة القمح. ومن تزاوجهما كانت وســامتى ووسامة أختى (سميرة).

أمــا (بدرية) فقد نزعت فــى وراثتها إلى أصــل بعيد. فلم تكن العــين قادرة على أن تلتقط وجه شــبه بينها وبيننا. ترابية معفرة (شــعنونة) كثيرة الصراخ. تبدو الحدة فــى عينيها كأنها تتربص لشىء.

وحــين ذهب أبــى إلى الخمارة مســاء ميلاد (سمــيرة) ضحكوا وصفقوا لســماع الخــبر وفقدوا وعيهم على حســابه. وأعلن أبى فى منتصف السهرة أنه سيعاود التوبة.

فقال «بكر أفندى»:

– ها... ســيدخل خروف الله مرة أخرى إلى حظيرة الله. لكن... هل وجدت لذلك سببا أكثر معقولية من التصوف؟!

فانطوى الفيلسوف على كرسيه كما تنطوى الوسادة وبدأ يجيب بالنيابة عن أبى، وعن كل شخص:

– يظهر أن للمسألة وجها آخر...

– هيه...

– لا يكفى أن تجد سببا معقولا وتقنع به... يجب أن يقهرك السبب فذلك أضمن لك.

– مثلا؟...

– مثلا؟!... لنفرض أنك أردت أن تشنق نفسك فماذا تعمل؟ تضع الخية فى رقبتك الكريمة أولا وأنت واقف على الكرسى. لأنك تريد أن تتخلص من الحياة التى لا تطيقها. مفهوم؟

– مفهوم.

– حسن. تضرب الكرسى برجلك ليتعلق جسمك فى الهواء. تحس – وقانا الله السوء – بكبسة الموت على أنفاسك وعندئذ تأخذ رجلاك فى البحث عن الكرسى الذى دفعته منذ وهلة. فلو فرضنا أنها حصلت عليه، إذن لوقفت عليه من جديد. وعندئذ تنسى أن السبب معقول. لكن الكرسى بعيد. فيصبح السبب «المعقول» «معقولا وقاهرا» فى وقت واحد. لذلك... عليك رحمة الله!!

ها. ها. ها.

وظلت الحجرة العليا مقفلة إلا فيما ندر. وبنيت تجاهها حظيرة للأرانب. وكمنت كتب التوبة فى الخزانة الخشبية وبعثرت أختى حبات السبحة ذات يوم. وعبث بعض الفئران بخيوط المصلى. وواظب أبى على برنامجه وواظبنا ثلاثتنا على النمو. وانطبعت هذه الفترة من حياة أسرتنا بطابع عادى فلم تقع فيها أحداث جسام،

فغدت أيامها فى أنظارنا أشبه بوجوه المارة فى الشارع المزحوم. وجوه عادية خالية من كل ما يثير. لذلك أحسست ذات يوم – وكأنما حدث ذلك فجأة فأيقظنى من النوم – أن أبى يناديني وهو راقد على الكنبة ظهره إليها ووجهه إلى السقف وقد ركب ساقا على ساق. نادانى وقال لى وكأنه يفكر فى معنى ما يقول:

– فؤاد... فؤاد!!

– نعم يا بابا.

– هل تدرى يا بنى. هل تدرى؟!

فهززت رأسى مستفهما. فاستطرد:

– هل تدرى أنك اليوم ابن سبعة عشر عاما... ياه... كيف مرت هذه الأيام؟! يا سلام!!

ولم أجد جوابا ولا تعليقا. فجلست على كرسى قريب ووجهى إلى الحديقة أسمع نباح الكلب وأرى ترنح الأغصان. وفى رائحة الجو آثار من تنفس النبات النادى. وعادت ملامح أبى إلى سكون ليس له قرار لا يعلم ماذا فى داخله. سكون حملنى على أن أسأل نفسى: وهل يعتبر بلوغى سبعة عشر عاما من المسائل الضخمة. ثم همست: وماذا فى هذا؟ إن (بدرية) اليوم بنت أربعة عشر عاما و(سميرة) فى التاسعة. فلماذا لا يقول لهم مثل هذا الكلام؟!

ودخلت أمى فأخرجته من أفكاره. وكان المساء قد دخل. وعلى

وجه أبى علامات قلق شـأن كل من يتناول شـيئا فى موعد منتظم. وحسـبته مهموما فسألته عما يعانيه. خصوصا لأن أحاديث التوبة كانـت قد عادت إلى الظهور فى خلواتهما من جديد. وكانت أمى لا تعلـق على الأحاديث لأنها فى الحقيقة كانت يائسـة. وإن أدركت بقلـق رغم أن مطالب البيت آخذة فى التزايد وأن شـرابه قد أصبح حراما مرتين. لكن الهجوم على أبى لم يكن شيئا سهلا.

جلسـت أمى على حافـة الفراش وفى يدها جـورب تلفق كعبه وطأطات رأسـها تعمل فى صمت وبدا وجهها الوسـيم طويلا أكثر من العادة.

وكانت عين أبى تنظر إليها. وصوت الأختين فى الحديقة يهب مع نسـيم الليـل. تضحكان فى مرح وخلو بـال جعل أبى يمصمص بشفتيه ويهز وركه المعلق.

وغـرزت أمـى الإبرة فى الجـورب ورفعت بصرهـا إليه وهى تبتسم:

– فيم تفكر يا بو فؤاد؟

فقال بكمد:

– فى الأولاد!!

– مرة أخرى؟!... كنا قد نسينا الموضوع!!

فاستطرد بكمد أشد:

– كنـت منذ وهلة قبل أن تدخلى علـى ... أقول لفؤاد: إنه قد

بلغ السابعة عشرة.

– من عمره الطويل...

– آه... وهنـاك بنتان تلعبان فى الحديقة. لقد تغيرت الأحوال يا سـيدتى (وضحك) إن كثر الطعام قلت الأفواه، وتكثر الأفواه إن قل الطعام!!... حكم... قرش أو كرش!!

وجعل يهز وركه المعلق ويمصمص ويحوقل. وأمى تعمل الإبرة فى الجورب فى حياد امرأة تلمس القضية من بعيد حتى لا يدركها الأذى.

وصرخـت (سميرة) فأطلت أمى من الشـباك فـإذا (ببدرية) قد لطمتها فأدمت أسـنانها. وبكت الصغيرة فـى حرقة ودلال ودعت أمى علـى بنتها الكبيرة بقصـر العمر. ثم عـادت إلى حيث كانت تجلس ودخلت علينا الصغيرة وظلت الثانية فى الخارج. وكان أبى لا يزال مستلقيا وعيناه فى السقف كأنما يقرأ شيئا فانفجرت شفتاه عن ابتسامة وعاد يقول فى ثقة وتقرير.

– لا يجـب أن نقلق على مصايرنا. هل كنـا نعلم أيام كنا نبكى على الوفاة وسـقوط الجنين أن فى أصلابنا وأرحامنا مصائب سيعض بعضها بعضا تحت أشجار الحديقة؟!

وانفتح ضاحكا. ثم استوى جالسا على الكنبة وصفق بكفيه:

– حكم والله العظيم!!.. وكنا أيامها ننذر نذورا شتى: أن نجمع لهم قشـر البطيخ من الحارة وأن نجعلهم يستحمون بماء المطر. وأن نربيهم كالمواشى. لم يكن هناك داع لكل ذلك.

ونظرت أمى ولم ترد. ووضعت فردة جورب وأخذت فردة أخرى.

قال أبى:

– رقعى يا سيدتى رقعى. تمرنى حتى لا تنسى!! غدا ستتسع الرقعة حتى تشمل الثوب كله!! رقعى. لقد حملت (سميرة) على كفى ذات يوم وأنا فى السطح أمام حظيرة الأرانب ودعوت حدأة كانت تحلق لتخطف أرنبا – أن تتعشى (بسميرة) قلت لها «خدى كتكوتك يا حداية» واستحلفتها بأولادها فلم تستمع إلى. آه...

ثم ما لبث أن تقلب تقلب القلقين، وقام فلبس وانصرف إلى حيث يبعثر النصف الأول من الليل مع أصحابه ويعود لينتظر الليلة الأخرى.

* * *

وأخذ أبى يفكر فى التوبة تفكيرا حقيقيا. كانت لها أسباب أخرى تولد فى نفسه وتشد من عزمه. أسباب حسية لا علاقة لها بالروح. منها أن قوته الجسمية أخذت فى الانحطاط وقوته المالية أخذت فى التدهور. وصمتت زوجته عن مفاتحته فى الموضوع فلم تتح فرصة لعناده أن يظهر. ومنها – وربما كان ذلك مهما – أن الجو الذى يسهرون فيه أمسى مملا بليدا لا يثير المرح إلا بجهد، فقد انقطع أحدهم بسبب المرض. وخر الفيلسوف العظيم ذات ليلة صريعا تحت عجلات إحدى العربات وهو يعبر الشارع فحملوه فاقد النطق ولم يفق من السكرة. وحاول «بكر أفندى» الطويل العملاق الحيوان ذو الصوت الجهورى أن يجلس مكانه وأن يسد ثغرته فبرهن لهم

بطريقة ملموسة أن الجبل على ثقله قد ترجحه (فكرة). وفقدت أفكار الليل رونقها. وذهب التمويه اللذيذ الذى كان الفيلسوف يعقده حول كل قضية. وشعر المجتمعون فى الركن المحجوز كأن مصباحا قد انطفأ وكأن الخمر فقدت جزءا من مفعولها... فجعلوا يفكرون.

وانقطع أبى عن الذهاب فى صمت كأنه لم يشأ أن يبوح بتجربته إلا بعد النجاح. لكن ذلك كان محالا، لأن مداراة اللهب والدخان أمر غير معقول. ولم تدم التجربة إلا ريثما أحس من جديد أنه يفقد مع مطلع كل شمس جزءا من قوته. فعاد إلى الخمارة بنفس الصمت الذى انقطع به.

وجأر «بكر أفندى» حين رآه ماثلا على العتبة. وعبر أبى فضاء المدخل قاصدا إلى الركن فأحس فجأة بيد تعصر قلبه، وعللها ليلتئذ بأن كل شىء فى المكان فقد حماسته وأضاع بهجته وأن «بكر أفندى» لم يكن أهلا «لشغل هذا المنصب» فشرب ورجع. ثم رجع وشرب. ثم رجع ولم يعد بعدها أبدا!

كان السبب إجباريا لا أثر للاختيار فيه لأن أمراض الشيخوخة قررت حرمان أبى من الشرب. وقد كان جديرا بألا يطيعها وهو أهل لذلك. لكن الذى كان يحدث هو أنه يشعر بالرغبة فإذا ما استجاب دفع الثمن غاليا من الألم. وفى بعض الأحيان كانت الرغبة والخوف من العواقب يظهران معا فى وقت واحد فتدمع عيناه فى صمت وهو

ضاغط جبهته بأصابع كفه حاجبا بريق عينيه عمن يراه.

وكنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة أنظر إلى الحوادث فى بيتنا فى رفق محايد وديع هادئ. وأرى أمى تختلى بنفسها فتبكى فى صمت، وعندما تدخل على أبى يعود وجهها فيلبس قناعا من السكون كأن شيئا مما كان لم يحدث.

أما (بدرية) فقد كانت فى الخامسة عشرة ملأت صدرها أنوثة فياضة وانبعث من عينيها بريق جديد. و(سميرة) فى العاشرة تخطو فى طريق الأنوثة بليونة ورقة وحذر. ينقطع نفسها فى منتصف الطريق إذا أجبرتها أختها على الصراخ أو كلفتها فوق ما تحتمل. وكان أبى ينظر إليها على وجه الخصوص ويطيل النظر إذا مرت أمامه فى الليالى التى يثقل عليه فيها المرض.

ثم نظرات رثاء معينة كانت تلتقى على وجهى إذا دخلت على أبوى وهما ساهمان. وسألت نفسى ذات مرة: لماذا لا يقولان لى ما يضمران فأعرف أين أنا؟ أليس ذلك خيرا مما نعانيه جميعا؟ ألا ليتهما يقولان!! لكننى كنت لا أسمع شيئا فى البيت.

كنت حتى ذلك الوقت أشبه بضيف طويل الإقامة يلقى من الإكرام ما يلقاه البنون. لا أعرف طعما واضحا لشىء ولا أتصور الحياة إلا هادئة. وكنت فى أحيان قليلة أتساءل:

– هل سيجىء يوم أكسب فيه مالا وأتزوج امرأة وأرى من حولى ناسا ينتظرون إشارتى وأمرى؟! متى يأتى ذلك اليوم؟!

وكان ذلك من تعطشى إلى المسئولية وظمئى إلى الضرورى من

الصــراع، والنهايــة الصغرى منه التى تلزم كل حى. والتى تشــبه المرارة الضئيلة فى الخمر التى فتنت أبى.

علــى أن ذلك كله لم يقدم ولم يؤخر ولم يغير من الواقع شــيئا. بل أخذ الواقع يسوء وعلامات خوف وقلق تبدو على المرأة المسكينة (وأمســت أســيرة الأحلام هذه تنهض من تحت كابوس لتقع تحت كابوس آخر).

رأت فى منامها أن الشــجرة الكبيرة القائمة فى زاوية الحديقة كســحتها فى إحدى الليالى ريح آتيــة من الجبل. ورأت مرة أخرى أن الكلب الرابض تحت شــجرة الخروع ينظر إلى إنســان لم تتبين شــكله وهو خارج من الباب الحديدى وكأن دموعا تسيل من زاويتى عينى الكلب وعواء مكتوما يتردد فى فمه. وكانت تقص هذه الرؤى على بصــوت خافت وعيناها منصرفتان عنى إلى شــىء آخر، حتى كأنما كانت تحدث نفســها. ويفعل ذلك فى خيالى ما تفعله اليد فى الحوض الســاكن حيث تعبث بمائه. والأدويــة تتزاحم إلى جانبه يوما بعد يوم. والزوار يقللون زيارتهم حتى انقطعوا كأنما رأوا أنه لم يعد هناك داع لضياع الوقت.

حتى الشــحاذ المقيم على ناصية الشــارع كف عن ابتزاز نقودى بالدعاء كلما رآنى لأن أمى نهرته عن ذلك مرة. وقد كان أبى يعطف عليه باستمرار.

ثم اســتكان اســتكانة الأذلاء وبكى يوما وأعلن أنه يســبب لنا

المتاعــب فتركته أمى وذهبت إلى حجــرة أخرى وأذابت عينيها من الدموع ثم عادت إلينا بخدود عليها بقية حمرة.

وفى إحدى ليالى الشــتاء والريــح تهدر فى الجبل وتلوى أغصان الأشــجار بين كفيها كأنها غدائر شعر. أسلم روحه فى صمت كأنه نوم. وأقســمت أمــى أنها رأت روعة ملائكيــة بيضاء ترفرف على فراشــه وأعلنت أنها تعرف ماضيه لكنها تعرف أيضا ماذا رأت! ! وقبــل أن ينبثق صوتها بالصــراخ ليلة مات كان الكلب يعوى تحت شجرة الخروع، والقطار الأخير القادم من العاصمة يمط صفيره على أبواب المحطة، ويزفر... قبل أن يتوقف...

* * *

٥

وترك لنا معاشا صغيرا، وأحزانا كبيرة، وأما فى صرامة السيف، لم تكن لى موضع نجوى فيما مضى من الأيام حتى ولو كان لى نجوى. سجانة حسناء فى سجن الحريم... منظر حلو ومهمة قاسية. وقد أعادت ترتيب «نظامنا» كما يفعل القائد، وأفهمتنا بطريقتها التى لا تخلو من الإيحاء أنها تحس أخطارا تتهددنا خصوصا من ناحية الاقتصاديات لأن أبى – رحمه الله – استهلك كثيرا فى أيامه الأخيرة.

وكنت أخاف من تنبؤاتها كأنها كانت ترى ملامح الغيب. وبعد وفاة أبى تنبأت لنفسها أنها ستكون طويلة العمر. وأطرقت إلى الأرض وهمست بعد قليل: وهذا بعد الأزواج فرصة للمتاعب (وتنهدت).

ولا أكتمك أننى تأثرت بما قالت. ربما فعلت ذلك لكى تثير حماستى أو تزرع الحنان فى قلبى بشكل أكثر قوة. على أننى شاب هادىء. إحساساتى شبه داخلية. قد أحترق فى الباطن ولا يرى على وجهى أثر الحريق. والدمعة عزيزة كأنها نابعة من الجلمود. وحتى هذه السن لم أمارس الحياة ممارسة واقعية بل كنت كأننى أقرأ عنها فى كتاب. ولم تعد فرصة اتصالى بالناس سانحة كما كانت من قبل أيام أبى الزاهية وانتعاشه المالى. ولم يكن لى فى المدرسة

أصدقاء من أندادى.

كان هنـــاك قلة من أبنـــاء الفلاحين النازحـــين إلى المدينة لأجل التعليم. يقيمون وحدهم وأهلهم فى القرى ولا ينعشونهم إلا بالفطير والخبـــز من حين إلى حين. ومن بين هـــؤلاء الطيبين كان معظم من يعاشـــرنى. وكنت أرثـــى لوجوههم الشـــاحبة وأيامهـــم الجرداء ووحدتهم أيام المواســـم، فأقرضهم من مصروفى ما قد يطلبون. وقلما كنت أستعيد القرض.

ولما ناقشـــتنى أمى الحســـاب مرة بعد مرة وضيقت على الخناق وبـــدا فى عينيها الشـــك أننى قمت برحلـــة إلى حى العاهرات – لم أجـــد بدا من أن أعترف. وعند ذلك شـــهقت. وأفهمتنى أنه لا فرق مطلقا أن يخدعك رجل وأن تخدعك امرأة... كله ضحك على الذقون.

كان ذلك فى حياة أبى. وكأنما عز على أن يلحقنى هذا فشـــكوت إليه أمرها فوجم ثم أفاق ثم ضحك ثم قال – وكان راقدا على الكنبة ظهره إليها ووجهه إلى السقف:

– إنهـــم مســـاكين. هؤلاء الذين يعيشـــون وحدهم فـــى المدينة. لكن... ليس من الممكن يا بنى أن تمحو وحدك آلام الناس. اســـترح إذن. وسكت ثم استأنف:

– علـــى أن المال الذى تتبرع به ليس من كســـبك (وضحك مهونا) وعندما تكسب شيئا كن حر التصرف فيه. إن أمك محقة إلى حد ما...

ومنذ ذلك الوقت وأنا أحيد عن الأصدقاء. أفهمونى أنها مســـألة

مصالح. ولست أنسى يوم انزوى بى أحدهم فى الفسحة الأولى أصفر الوجه متشـقق الشـفة منتن الفم وطلب منى أن أقرضه شلنا. فجف ريقى ولم أستطع أن أرد عليه وكدت أقول له: إنهم حرموا على ذلك لكن لسانى سبقنى فقال غير ما كنت أشاء. قلت: غدا صباحا...

وكان (غدا) الجمعة. وفى يوم السبت لم أقدم إليه شيئا. وسألنى بعينيه فى اسـتدارتهما اتسـاع وفى بياضهما اصفرار فأشحت عنه بوجهى فلم يعاودها بعدها...

أرتنى أمى أن الصداقة نهب وأن الغرام خداع وأن العلاقات بين الناس تنسـجها منافع ظاهرة وخافيـة. ورأيت أبى قليل الأصدقاء تقوم اقتصادياته على (الاكتفاء الذاتى) لا يعطى ولا يأخذ. يسـكن بيتا يملكه وينفق مرتبا يقبضه فى نظام مثل حركة البندول متسـق لا يتخلـف. حتـى إذا ما ألح عليه الداء حذف أشـياء بدل أشـياء وباعت أمى معظم حليها واسـتجاب الله لدعاء المريض فاختاره قبل أن يجور على قوت الأولاد، فترك من بعده أسـرة كلها أرامل ليس فيها رجل يعتمد عليه!

وأظهر شخصية فينا كانت شخصية أمى. وكانت إمكانيات النجاة فى السفينة التى تقودها إمكانيات ضعيفة. فهناك: أنا.. وأنا طالب فى أخريات دراسـتى الثانوية لا تثير شـخصيتى ولا تربيتى ثقة ولا حماسـة. وبعدى فى الترتيب تأتى (بدرية)... عفريتة تحتاج إلى قيد. شـخصيتها كماء النار شـديدة الكى. وتشغل بال أمى أكثر

مــن أى فينا، فكانت ترى أن أملها وقمة ســعادتها أن تدخلها إلى بيت زوج. ثم تأتى (سميرة) آخر الأمر... مثل بيت الشعر فى دفتر الحســاب. فى موطن شبه غريب فى طبيعتها. كنت وأنا شاب غير مرهف أتألم لها حين أرى (بدرية) تطلق عليها من رعونتها دشــا بعد دش لسبب لعله تافه. فتحتمل هى طيشها فى ألم صامت كأنها زهرة تدعك بين إصبعين.

مرة كانت تمســح البلاط وتستصحب ماء المسح فى جردل وتعصر الخيشــة بكفين غير قادرتين، وحبات العرق على وجهها المحتقن كأنها الندى على الورد، ونبضات قلبها تظهر فى نقرة نحرها ونفسها مقطوع – فحدث أن عثرت فى الجردل وكان خلف ظهرها وهى مكبة على يديها ورجليها، فأريق ما فيه من ماء وسخ. وعند ذاك خرجت لها (بدرية) من حجرة ما كما تخرج الحدأة من الوكر وضربتها على صدرها بكفها الجافة فتراجعت البنية بثيابها المشــمورة الكاشــفة عن ساقيها حتى اســتندت إلى الحائط وصارت تتأوه بحركة مكتومة وبصوت لا يجد مخرجا، وغاب الدم عن وجهها حتى ابيضت أرنبة أنفهــا. ولما نزلت أمــى من فوق ورأت ثورة ابنها الهادئ وشــحوب ابنتها الصغيرة انضمت إلى معســكرنا وأمسكت (بدرية) من شعرها النامى وأجبرتها على أن تستعمل الجردل. مرة واحدة وانقضى الأمر ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه.

علــى أن المهم فى الموضوع هو مــا آلت إليه اقتصاديات بيتنا بعد

موت أبى. كان لابد لنا من مورد جديد يؤازر بضعة جنيهات تدخل إلينا من المعاش... عرق أبى الموظف وهو فى القبر. وكان موقفنا من ذلك يدعو إلى التفكير. كنت فى السنة الرابعة الثانوية بينى وبين الشط عام وبقية العام التى تركنا أبى خلاله. وكنت بطىء الخطا غير مأمون الرحلة فكان من الجائز أن أتعثر فى الطريق فلا أتم مرحلة تعليمى فى هذه المدة. وأرسل لنا رئيس أبى رسالة مع أحد الخدم أبدى استعداده فيها أن يعيننى فى إحدى الوظائف لأنه يعلم حقيقة حالنا.

وقد كان أبى من المحبوبين لديه ولم يكن يخفى عنه شيئا.

وسهرت أنا وأمى ندرس الموضوع. ماذا أقول؟! هل كنا ندرسه معا؟! لا، مطلقا. فقالت أمى وهى جالسة على المصلى ونظراتها فى حجرها:

– لنفرض أنك توظفت. هذا حسن. فهل بضعة الجنيهات التى ستدخل إلينا تساوى قطع تعليمك. أظن لا.

فسارعت بالموافقة.

فألقت على نظرة شاملة كأنها احتوتنى بها. ودخلت علينا (بدرية) تقترح أن تقلى العجة بالسمن فردتها أمى إلى الصواب بتخويفها من المستقبل وأمرتها أن تقليها بالزيت، فلوت بوزها وخرجت من الحجرة وما هى إلا هنيهة حتى رجعنا إلى مناقشة

الموضوع، قالت أمى:

– ولنفــرض أن الظروف لم تكــن فى صفنا وأننى مرضت مثلا أو أن إحــدى أخواتك طالبتنا بجهاز عاجــل، فهل يكفينا المبلغ الذى قرر لنا معاشا؟

فلم أرد.

فأجابت بالنيابة عنى:

– من الخير إذن أن تذهب فتقابل الأستاذ الجمال. توظف.

فسارعت بالموافقة.

وعندئــذ وصلــت إلى أنوفنا رائحة من المطبــخ. هى رائحة عجة تقلى بالســمن. فنظرت إلى أمى نظرة شــاملة كأنها احتوتنى بها. وبــدا فى عينيها اعتراف غامض بأن صاحب الرأى أكثر اعتبارا من الناس حتى ولو كان خصما. ثم انصرفنا عن الموضوع.

ودخل مساء ذلك اليوم.

كان الليل فى الضاحية ســاكتا لا تصــدر عنه حركة. إلا انزلاق الحديــد على الحديد فى حركــة القطارات الذاهبــة والآتية وهفة أوراق الشــجر تحت الشــيش تدخل من أذنى إلى قلبى كئيبة كأنها وسواس. و(سميرة) تذاكر إلى جوارى ملتهبة الخدين من فعل البرد وأوردتها تتعرج تحت بشــرة صدرها فى لون الفيروز وتسألنى من حين إلى حين ســؤالا مدرسيا يعترضها. و(بدرية) هناك مع أمها لا

ندرى ماذا تصنعان.

كنت حاسا بالمسئولية إحساسا كخوف السكران أن يضل الطريق. وكنت أتمنى أن أكون موظفا. أريد أن أعاين هذه الحالة. «أن أكسب وأتزوج فأملك امرأة ويكون من حولى من آمرهم فيسمعون أمرى»!!

لم أتمتع بذلك قط. كالمريض الطفل الفقير الذى بات يهذى بالتفاح.

وعندئذ صر الباب وانفرج منه وجه أمى أبيض زاهيا فى الملابس السود ونور مصباح الصالة واقع على ظهرها.

وفجأة تمتمت شفتا (سميرة) التى كانت غير حاضرة الذهن ونظرت أنا إلى أمى أسأل عما تريد.

دخلت وفى رجلها شبشب من الصوف لا يسمع له وقع ثم اتكأت على حافة المكتب وسألتنى:

– هل تذهب غدا لمقابلة «الأستاذ الجمال» الذى أرسل فى طلبك من أجل الوظيفة؟

فكان جوابى سؤالا آخر:

– أذهب؟

فوافقت من خلال تنهدها ثم صارحتنى بمخاوفها أن أعين خارج القاهرة. إذن ليصبحن حساب الربح أدنى من الخسارة. فالبيت يريد رجلا وعدة جنيهات:

– هذا ما ينبغى أن تقوله فى وضوح. ابذل كثيرا من الاحترام وأجعل فى ملامحك شيئا من التعبير (وعضت على نواجذها من الضيقة).

– حاضر!

فقالت بانفعال جديد:

– أنا لو كنت تعودت أن أقابل الموظفين... لذهبت إليه!!

– ليس هناك ما يدعو إلى ذلك.

فتشاغلت عنى بإلقاء نظرة على كتاب (سميرة) وانسحبت تجر رجليها بلا صوت فى الشبشب الصوفى. وحين ألقيت نظرة على ظهرها تبينت أنها هزلت، فالثوب أكثر سعة وقد كان محشورا فى جسمها حشرا.

وفى صبيحة اليوم التالى لم أذهب إلى المدرسة. صعدت إلى الدور الأول من مبنى وزارة الصحة لأقابل «الأستاذ الجمال» وحين رآنى الساعى الجالس على بابه عرفنى بملامح أبى فمصمص بشفتيه. كان الساعى رجلا مسنا ذا لحية سوداء مستديرة كأنه يصبغها. سليم العينين ربعة. وبدأ يحوقل ولعله تذكر أبناءه. وجلست على أحد الكراسى فى الطرقة تحت الجرس ذى (التابلوه) فشعرت أننى فى مأتم أبى. كل من يمر يحملق. وبنظرة واحدة إلى الساعى يعرفون من أنا. وخيل إلى أن موت الأب جريمة ليس للأبناء دخل فيها. فغمرنى شعور من الخجل واحتقن وجهى الزاهى أو الصورة الثانية من وجه أبى الراحل. وعاد إلى الساعى يؤكد أننى سأقابل «الأستاذ الجمال» فور خروج الزائر، فتنهدت وجلست أستمع إلى صرير الجرس وأتلهى بعامل (البوفيه) الصبى الذى يمر كالنحلة كل خمس دقائق

وعلى كفه صينية المشروبات. وسألت نفسى لكى أتشجع:

– هل لهذا الولد أب؟

ثم أجبت:

– ربما... لا.

وأردفت بحماسة:

– وربما.. ولا أم.. يتيم.. لطيم.

وغمرتنى حماسة الجبان حين يسمع (المارش) العسكرى. وناداني الساعى فدخلت أهرول. وكان «الأستاذ الجمال» متكورا على كرسى المكتب، طوله كعرضه وبسمة مؤنسة تضيء من حوله المكان. واختصر الرجل الكلام كأنه يملى برقية:

– أنتم موافقون إذن... حسن... أوه. إنك لم تعد صغيرا... وضغط جرسا فدخل أحد الموظفين.

– معه يا «رجب أفندى» إلى المستخدمين... إنه من طرفى.

فسرت خلف «رجب أفندى» من سلم إلى سلم ومن دهليز إلى دهليز إلى حيث كتبت طلبا وتركته. وفى قطار الساعة الحادية عشرة رجعت إلى (حلوان) حيث قصصت على أمى موجز الخبز وكانت تصغى إلى بوجه لا يبتسم.

* * *

٦

وأصبحت كاتبا فى إدارة الحسابات بوزارة الصحة. أتقاضى ستة جنيهات فى الشهر وأجمع وأطرح وأضرب وأقسم.

وسألت نفسى ذات مرة: لماذا كتب على أن أعيش بين الأرقام. هل أرادت الأقدار أن تضيف إلى حياتى لونا من (الثبوت الذى لا يتغير) كان ينقصها؟! وقهقهت ساخرا وأنا أصعد سلم المحطة لأدرك القطار قبل أن يتركها.

ولم يكن يعنينا المورد بقدر ما كان يعنينا ما نأخذه منه. فبدرية قعيدة البيت تساعد أمها فى قضاء حاجتنا. وسميرة تتعلم وتتفتح وتبشر بمستقبل فى كل مرافقها الحيوية.

وبعد خمسة وأربعين يوما أمسكت بالنقود للمرة الأولى من عرق جبينى. من خزينة الحكومة. من نفس المكان الذى يصرف منه الوزير. ثمانية جنيهات إلا قليلا وزعتها على جيوبى حتى لا تنشل. بعد أن أعطيت منها «عم سيد» شلنا. وركبت القطار قبل الميعاد ووصلت إلى (حلوان).

خيل إلى وأنا أصعد سلم السلاملك أننى أطول من أمس وأكثر ضخامة وفخامة. وكان اليوم خميسا و(سميرة) عادت من المدرسة. تدق ساعة دخولى مسمارا فى الصالة لتعلق صورة جديدة لها. ونزلت

من على الكرسى والتصقت بى تطلعنى على الصورة، وقبلتها فى جبينها وناديت أمى فجاءت من الحمام وكفها حمراء من دعك الغسيل وعرق طفيف على شفتها العليا.

ودخلت إلى حجرتى وتبعتنى. كل شىء فى كان قويا. وكنت أمشى بخيلاء. وجلسنا على أريكة جنب فراشى وصرت أخرج من كل جيب نقودا وأضع كل ذلك بين يدى أمى.

وأعادات تجفيف كفيها فى ذيل ثوبها ثم أمسكت النقود. ولاحظت أن أناملها ترتجف وأن شيئا من الحزن يطفو على وجهها وزايلتنى الفرحة وحل مكانها وجوم غريب. وإذا انقلب مرحنا انقباضا كان يدعو إلى التقزز كالعسل إذا خلطته بالملح.

– ماذا بك يا ماما؟... هل يحزنك أن أقدم إليك مرتبى؟

فأجابت بأسف لم تستطع ستره:

– أبدا يا بنى... لكننى تذكرت ماذا كان يفعل أبوك... آه...

ولثمت النقود وأطبقت عليها كفها. ثم نظرت من خلال النافذة وأنصتت إلى الكلب الذى ينبح. وإلى (سميرة) التى عادت تدق المسامير ثم قالت أمى بصوت حزين:

– لقد أصبحت أبا فى وقت مبكر... لك ثلاث من البنات... اثنتان منهما قابلتان للزواج. أ.. آ..

فتدخلت فى الموضوع:

– إننى سعيد بكل هذا يا ماما.

– أنا واثقة. لكننى بمناسبة بدء أكلنا من عرق جبينك أحب أن أذكرك بشىء. نحن معك كمن ينظر إلى الدنيا بعين واحدة فإذا رمدت أو فقدت عاش فى الظلام. تمام؟!

قلت بشىء من الجزع:

– وما الداعى لهذا كله؟ ألست ابنك؟!

– ليس فى الدنيا أم مزورة. قوة الأمومة فى أنها من المحال أن يتسرب إليها الشك. أنا أمك ضرورى. لكن... بعد وفاة أبيك أحسست أننى لا أستطيع أن أعيش بدونك...

– وأنا أيضا.

فأجابت بلهجة أمر:

– اسمع منى وكن طويل البال. خير لك أن تفهم الموقف بوضوح فأنت دليل القافلة. هذا البيت ابن تجربة واحدة لا يحتمل بعدها شيئا فنحن إن فقدناك بطريقة من الطرق ضاع منا كل شىء.

ونظرت ساهما ووجهى شاحب. كنت آنذاك غير أهل للتعبير إذا خضت هذه المواقف خصوصا مع أمى. لكن باطنى كان يغلى. وكان فيه شىء أقوى من الذى قالته. لكن الفرق بينى وبين أمى أنها (تستطيع أن تقول). والمعانى تطل من العينين. وقد أدركت فعلا ما يدور فى داخلى فقبلتنى فى كتفى وانصرفت فى ثوبها الأسود تطأ الأرض برفق من يخشى أن يوقظ نائما...

وكان كل هذا مدعاة إلى التفكير.

وبدا الوضع متناقضا بين حياتى فى البيت وحياتى فى العمل. أمى وأخواتى ينظرن بخوف على . ولكن الزملاء الذين أعاشرهم كانوا يرهقوننى ويقسون فى تلقينى أصول الحسابات. وكان بعضهم يسخر من أخطائى.

حسن. ليس إذن ما تخاف عليه أنت يخاف عليه غيرك من الناس. وعندما كانوا يضيقون على الخناق ولا أجد بينهم نصيرا كنت أتخيل أن أمى بشخصيتها القوية داخلة علينا من الباب. وأن هؤلاء الشبان الطوال اللسان استطاعت أمى بقوة جدلها ومهابة نظرتها أن تلجم أفواههم.

هناك إذن حياة خارجية ينبغى أن نمارسها ونحن صغار... وتلك هى التى منعت منها. لا يتعلم السباحة من يخافون عليه من الغرق، ويغرق أخيرا من يتعلم السباحة. آه...

ودعك الآن من حياة الديوان فالمهم هو حياتنا فى البيت.

مرتبى ومعاش أمى وأخواتى وإدارة حكيمة فرضت على الجميع – أتاح لنا هذا حياة رخية معكوفة. أما نصيبى من مرتبى بعد اشتراك القطار فكان طفيفا لا يتجاوز ثمن فنجان من القهوة أو كوب من الشاى أو زجاجة كازوزة كل يوم آخذه دفعة واحدة أول الشهر. وعلى أن أوازن نفقاتى بدقة وأن أحفر حفرة لأردم بترابها حفرة. فإذا أردت دخول السينما انصرفت عن المشروبات بضعة أيام ثم أخذت من أمى نصف قيمة التذكرة..

هل عاملت أبى هكذا؟ لقد كان يشــرب أشياء غير الشاى ويذهب إلى أماكن غير الســينما وكانــت تطلب رضاه. أما أنــا فإننى أعطى وأطلب الرضا؟!

وحاولت أن أعثر على الفــرق بين الرجلين... بينى وبين أبى.. فلم أســتطع. وقلت أن خير مرشــد لى أن أحاكيه بطريقة ما فجئت أول الشهر التالى وقدمت إليها المرتب ناقصا خمسين قرشا. فأعادت عد النقود ثم أعادت عد النقود. ثم سألتنى بابتسامة فيها مرارة:

– مبروك هل حصلت على ترقية؟!

كنت أريد أن أمزح أو أن أجرب لكننى كنت أضعف من أن أحمل لطمة. فهتفت محتجا:

– ماذا يا ماما؟

فأجابت بتراجع أقوى من الهجوم:

– لا شىء... لا شىء... إنه مالك وأنت حر فيه. لكننى أحببت أن أضبط الحسبة.

– إن أحد السعاة مات فجأة وترك أولادا صغارا فجمعوا له إعانة جبرية دفعت فيها هذا المبلغ... معقول؟!

وأحسست أن فكى الأسفل قد تراخت أعصابه وأنه على وشك أن يهتز. وثار فى باطنى صخب. لماذا اخترت هذا النوع من الأكاذيب؟ ألا إنه هو الســيف الذى جرحنا به الله؟! على أن وجه أمى قد بدا أمامى مريعا للغاية حتى كاد يحملنى على الاعتراف. خيل إلى أنه

قد انتفخ وتضخم كأنه تورم واتسعت عيناها القويتان كعينين طبعتا على الشاشة وفاض منهما شك وتعبير وتأنيب وحزن وذكرى. وكأننى رأيت كل شىء فيهما إلا ثقتهما بى وتصديقهما لما أقول. وكانت النقود لا تزال بينى وبينها على مساند الكنبة ونحن جالسان وجها لوجه فجمعتها هى بيد مهزوزة ثم أخذتها وانصرفت تطأ الأرض برفق وتنساب كالطيف وقد بدا الثوب الأسود عند خصرها أكثر اتساعا. وتركتنى وحدى.

* * *

وظللت مكانى لابسا بدلتى أحاول معرفة ما كان أبى يقهر به هذه السيدة. طبعا نحن الرجلان مختلفان.

ولم أستطع أن أغادر الكنبة. وكان المبلغ فى جيب بنطلونى الخلفى فى ظرف حكومى مستعمل. حذفته مزاحا أول الأمر فانقلب المزاح إلى جد دون أن أشعر فصممت على كذبتى.

وسمعت جلبتها فى المطبخ ومعها ضجيج (بدرية). كانتا مختلفتين على شىء وكل منهما متمسكة بوجهة نظرها. وخرجت (سميرة) وعادت عشر مرات إلى الدكاكين تشترى وتدفع. وأخيرا خلعت سترتى ووضعتها على كرسى وتمددت فى السرير ببقية الملابس حتى الحذاء فرحت فى النوم.. ثم استيقظت على كفها المثلوجة تهز رأسى وهى تقول لى بحنان فطرى:

– هكذا بملابسك؟!.. هل أنت تعبان... قم... الغداء على المائدة.

ولم آكل بشهية. كان هناك باذنجان مقلى طازج وملوخية طبخت أمس ولم يكن معها لحم كثير. وخصتنى أمى بمطايب الأكلة لكننى رفضت. ويظهر أن الرفض لم يصادف وقته المناسب فأثار فى نفسها غيظا.

وأكلت (بدرية) ما كان موضع النزاع بيننا فى حين أن (سميرة) الصغيرة رفضت ذلك. وقمنا عن الطعام وكنت لا أزال بملابسى فخرجت صوب الخلاء.

وبدا طريق المرصد المنحدر مبلولا تحت الشمس. كان صنبور أرضى كبير قد بات يرشح طول الليل فبلل الأسفلت وندى الحشائش النادرة النابتة فى بعض الأماكن على جانبى الطريق.

ولم أصعد الطريق كما كان يحلو لى لأن الشتاء قد ولى.

فألقيت نظرة على المستشفى الجاثم فى تعقل وسكون بالقرب من صهريج الماء ولو أن الذين ينزلون فيه ليسوا عقلاء. ثم سرت.

ووجدتنى فجأة فى الحديقة اليابانية تحت ظلة مجدولة بالخوص ولم يكن هناك رواد كثيرون. والأزهار قريبة عهد بالربيع متفتحة يانعة. ونسمات تئز فى ذوائب (الجزورينا). وقطة وقطة... وفراشة وفراشة. وأنا وحدى...

ورجعت أفكارى إلى أمى. إننى أعرف خطتها الآن. واضحة لا

غمــوض فيها. قدمتها لى على جرعات: «تتزوج (بدرية) ثم تتزوج (سميرة). ثم تحج هى. ثم أتزوج أنا»... هى. ما أطول البرنامج!!

إن الزملاء حولى لا يفترون يتحدثون عن النساء... ما بين حلال وحرام. خصوصا (فهمى) ذو الشعر الأسود والخد المنهوك والبشرة البيضاء. دخل عليه الرئيس يوما نائما على الدوســيه فقال له: صح النوم يا أفندى. لقد امتصت النساء نخاعك...

فانتصب صامتا وضحكنا فأردف قائلا له: الحكومة تعطيك وهن يأخذن. فلماذا لا تقسم بشىء من العدل؟!

لكن...

لن أتــرك هذا البيت؟! أمى تحبنى جدا ويبدو الحنان حتى فى لمسة كفيها. لكنها تقيم حولى سورا كأننى حديقة فواكه.

لا أستطيع أن أتأخر فى الليل إلا إذا كانت هناك أعمال إضافية. وعندما أعود، ويكون البنات قد نمن. تجلس لتعشينى وتسامرنى. إنها امرأة عجيبــة مليئة بالتناقض. يحملنى حنانها على أن أريق فى ســبيلها دمى وتحملنى قســوتها على التفكير فى الانتحار... وكله موت!!

وحكاياتهــا دائما لا تخلو من المغزى. ونظراتها دائما لا تخلو من الفحــص. إلا أننى فى ذلك اليوم الــذى خبأت فيه النقود كنت ثائرا عليها حتى سخرت من برنامج حياتنا الذى رسمته أمى فى هدوء.

وعندما عدت إلى البيت فى المساء وجدتها ذبحت دجاجة وطبخت

معها كشــكا. هى تعرف أننى أحــب هذه الأكلة وأننى أطلبها منها فى كل مناســبة طيبة... كما نعمل الكعــك فى العيد. وأدركت أنها تســترضينى. وحين جلسنا إلى العشاء ابتســمت وهى تقدم لى صدر الدجاجة وكان فى عينيها عتاب عزيز. إنها تســتطيع أن تفرق بين ما تسمع من صدق وكذب دون أن تطلب على أحدهما دليلا. وكان ذلك جــل ما يخيفنى منها. وصرت آكل ووجهى إلى الطبق و(سميرة) إلى جوارى تمصمص العظم فى رقة ونظافة كأنها قطة بيضاء. و(بدرية) تتمطق وتثرثر وتشــرب وتتلفت وتحدث صوتا بملعقتها كلما لمست الطبق. أما أمى فكانت تنظر إلينا جميعا وتزدرد الطعام بلا شــهية. وأخيرا التقت نظراتنا فابتسمت لى بحنان:

– فؤاد... هل أنت غضبان؟!

وقدمت بقية ما فى يدها إلى. قلت وعلى وجهى علامات الجد:

– أبدا يا ماما. لا. بالهناء والشفاء لك أنت. كدت أشبع.

ورجعت آكل. فاستطردت فى صوت كسير:

– هل أنت غضبان؟

– لا. مطلقا. لكننى تألمت من عدم تصديقك لى.

فضحكت بشــهية أكثر من التى كانت تــأكل بها. وكان كوعاها على المائدة وكفاها قريبتان من وجهها. ثم قالت:

– آه أيهــا الصغــير. عندمــا تصبح أبــا ويصبح هــؤلاء البنات

أمهات... تعرفون جميعا كيف كنا نحبكم...

وقامت فغسلت يديها وجلست تركب ملاءة على لحاف... وسألت نفسى وأنا لا أزال فى مكانى عما إذا كانت أعطتنى جوابا حاسما عن تشككها فى. فلم أجد ولم أعاود التكلم فى هذا الموضوع.

وبقى المبلغ فى جيبى حيث كان ثمانية أيام كاملة. وفى اليوم التاسع جلس الشبان من حولى فى الديوان آخر اليوم العملى يتكلمون عن سهراتهم وجلس (فهمى) يصف...

كان داعرا معصورا قلق العينين تبدو على وجهه آثار المفاسد، ضرب مرة فى بيت سرى وضاعت حافظة نقوده وكانت فارغة.... وخدع عدة فتيات من بنات المدارس، يزعم أن إحداهن انتحرت من حبها فيه وحسرتها على ما منحته. وله أم تدارى عورته وتغطى خسارته من نفقات البيت. وتعلقت به إحدى المومسات الرسميات حتى فكر فى أن يسحبها من الأوحال ويعيدها إلى حياة الأسرة فيتزوجها!!

وجمعتنى وإياه الطريق ونحن خارجان من العمل. فسألته وبقايا الدهشة لا تزال عالقة بنفسى:

– صحيح يا فهمى أن فى مقدورك أن تتزوج مومسا؟

فتنزى عوده الضئيل وحملق فى بعينين قويتين:

– لماذا لا؟!... إن الله يقبل التوبة فلماذا نرفضها نحن؟

– وأبوك؟ وأمك؟ ألا تخاف غضبهما؟!

فجلجلت ضحكته حتى التفت إلينا شيخ كان يمشى على مقربة

وحرك رأسه فى آسف. ثم قال فهمى:

– هل عرفت إحداهن؟

– إحدى من؟

– إحدى المومسات؟

– أعوذ بالله.

– من جهلك.

– وهل الجهل بالرذيلة جهل؟!

– ليس هذا من عملى. كل ما أعلمه هو أن أحسن علاقة تربطك بالأشياء هى معرفتك بها. حاول أن تعرف. إن وجهك قد احمر. لا داعى لحياء العذارى. هل أساعدك على التجربة؟..

– أيها الفاسد!

– احتضنت فتاة فسلمتنى نفسها وهى تقول لى: أيها المجرم وأيها الفاسد مثلك تماما. موافق؟ وداعا سأمر على أختى الصغيرة لآخذها من الروضة. فكر فى الموضوع.

ولو لم يكن معى مثل هذا المبلغ لما اقترفت هذا الفعل. إن أمى محقة. وستنفذ عينها إلى قرارة نفسى عندما تلقانى فى الصالة. وألقيت نظرة على وجهى فى مرآة حلاق على واجهة الدكان فى الشارع فلم أر فيه ما يلفت النظر. لكننى كنت شاعرا باشمئزاز عميق كأننى على وشك أن أتقيأ، فجلست على قهوة وطلبت كوبا من الليمون كثير العصير قليل السكر.

كان فهمى أوصلنى حتى بابها وأوصاها بى بغمزة عين ثم

انصرف. ولأول مرة رأيت المرأة غير (أم) وكانت شيئا مريعا. حتى المكان لم يكن مخدعا بل خيل إلى أنه «مشرحة» ولفت نظرى إلى جنب الفراش إبريق ومغسلة هى طبق عميق. ونور أحمر يلقى ذوبه علينا. وكنا على كنبة ولم تند منى كلمة بعد حتى سألتنى بلهجة عارية غجرية مهزوزة: هيء... ألا تقبلنى؟ فذقت طعم العجين الأحمر على شفتها ولم أذق طعم القبلة. وحاولت أن أبصق لكننى خفت وفكرت أن أعطيها ثم أنصرف لكنها سألتنى وهى تحرك حاجبيها: أنت صديق فهمى؟

فهززت رأسى مؤمنا. فقالت من خلال ضحكتها: هل هذا معقول؟

قلت فى نفسى إنها تعذبنى ولا تثيرنى. ووجدتنى وجها لوجه أمام شفتها مرة أخرى فالتقمت العجين. وقامت فخلعت ثوبا ثم وقفت فى وسط الحجرة وقالت بلهجة اليأس: توتو... آه ألا ترانى؟!

فقلت ببساطة وغضب وسذاجة: ليس اسمى توتو! فرفعت وجهها إلى السقف رويدا رويدا فى ضحكة ذات جذور حتى انمط عنقها وطال ثم أولتنى ظهرها وصعدت إلى السرير. ولما استلقت عليه قالت بتهكم: إذا لم تدركنى حالا فإن النوم سيغلبنى سيغلبنى. آه... آه... آ..

وانخرطت تتأوه كأنها مجروحة فى الوقت الذى كنت أعمل فيه ما يعمله الطالب البليد أمام الممتحن حين يستعيده السؤال بحركة لا شعورية حتى تهبط المعجزة

ولما صعدت إلى جنبها أخذها منى ضحك خرج من فمها وأنفها

معا وانتفض به جسمها فانطفأت. كما تنطفىء الشمعة فجمعت ثيابى وانصرفت...

قالت وأنا خارج من الباب: سلم على ماما...

وعلى القهوة شربت كوبا من الليمون وطلبت فنجالا من الشاى أهؤلاء هم النساء؟! أهذه هى المعرفة يا فهمى؟!

ثم ركبت القطار وعدت إلى حلوان.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة فتعشى البنات لسبب ما وأوين إلى فراشهن وتعشيت أنا وأمى وحدنا. وكنت طول الجلسة أحاول أن أظهر مرحا لكنها سألتنى فجأة عما إذا كنت أحس تعبا؟

– حقيقة أنا أحس بالغثيان.

– هل رأيت شيئا مقرفا؟!

فكدت أعض على شفتى لكننى أفقت وقلت:

– تمام.. بصقة على أرض القطار كانت تلمع تحت النور. (ها. ها. هاء) ولم يستطع أحد أن يزيحها عن الطريق.

– تشرب ليمونا أو قهوة؟

– شربت.

– أين؟

– فى (بوفيه) المحطة.

– انس الموضوع. لنتكلم فى شىء آخر. لقد استطعت أن أدخر عشرة جنيهات من دخلنا فى الأشهر الأخيرة. آه... الأيام تمر. من يصدق أنه قد مضى عليك فى الوظيفة عامان. على فكرة لابد أن

نتصدق على روح والدك.

– أظنها الآن مستريحة.

– طبعـا لكنها تهدأ تماما عندمـا أزوج البنات، آ... (بدرية): إننى أفكر فيها دائما يا فؤاد... بقلبى!

وعلا وجهها طابع شبه حزين ثم نظرت إلى الأرض.

* * *

٧

على أن (فهمى) قد علمنى أشياء كثيرة...

كان يعلمنى ويسخر منى فى وقت واحد. فإذا غضبت بصرنى فى هدوء:

– لا تحزن أيها الساذج. خير تجربة هى ما تشتريها بثمن. استفد بشبابك. اعمل وأنت قادر. خض لجة الحب. اكشف عن وجه الرذيلة وكن فضوليا. اكسب واخسر وستكون أخيرا من الكاسبين.

– لست أنسى تجربة صديقتك ذات الغرفة الحمراء.

فقهقه ضاحكا:

– لقد قالت لى كل شىء لكن الله حليم ستار. ألم تذق الحب بشكل أحسن؟

– لا أريد.

– كذاب. (وابتسم).

ونظرت إلى وجهه فرأيت عليه شحوب من نجا من نزيف فلم أقل له شيئا. على أننى بينى وبين نفسى كنت أحسد هذه الروح التى لا يستطيع جسمه أن يسعها. كان يتوهج ككوكب الزهرة فى الليلة الظلماء، حتى أيقنت بوحى قلبى أنه سيموت أخضر العود...

ثم ظهر فى محيط أسرتنا صداقة جديدة...

امرأة سمعت أمى تدعوها (فاطمة هانم) تعرفت عليها فى إدارة المعاشات بين صفوف الأرامل فى الثياب السود، ثم حضرت إلى حلوان لتزورنا ذات مساء.

كانت فى عذوبة الماء وليونة العجين تتكلم كأنها مريضة وتسالم كأنها أسيرة. ولعل أمى وجدت فيها صديقة طيبة تحقق لها بعض مآرب نفسها.

صافحتها فى حجرة الصالون وكان عليها يومئذ معطف قديم حرير أسود أحمر نسجه شيئا ما. وفى يدها حقيبة سوداء كبيرة تحمل فيها أوراقها وليس فيها شىء من أدوات الزينة.

وكانت الأيام تنسج بين المرأتين علاقات تدل على البقاء. فبعد صرف المعاش كل شهر كانتا تنزلان إلى (الغورية) لتشتريا ما يلزم لأولاد إحداهما. وقالت لى أمى ذات مساء:

– إن فاطمة هانم اقترضت منها خمسة جنيهات لشأن طارئ (وقد أبلغتنى هذا للعلم) فسألتها – بالمناسبة – عن تفصيل حياتها.

كان زوجها موظفا فى (العوايد) ويبدو أنه لم يكن نظيف اليد. فقد كانت عيشتهم أرقى من دخلهم ومظهرهم أضخم من حقيقتهم. لكن الرجل على الرغم من كل شىء لم يستطع أن يدخر شيئا مما خطفه. ثم خطفه الموت فترك بنتا وولدين. (قلت فى نفسى): أما أبى فقد ترك (ولدا وبنتين) والبنت هى الكبرى والولدان لا يزالان فى المدرسة، وإن كان أحدهما على وشك إتمام تعليمه المتوسط.

كان معاشهم يكفى عيشهم الضنك. ودخلهم كالمصباح ينطفئ دائما فى أخريات الليل فلم تكن الأيام العشـرة الأخيرة من الشهر تشهد عندهم رخاء. فضلا على أنهم سكان. ليس لديهم بيت يملكونه كما هى الحال عند الأرملة (أم فؤاد).

وكانت (فاطمة هـانم) تتكلم دائما عن عز قديم وتزعم أن جدها لأمها كان (سـنجق) وأن أباها أحـد المصريين الأغنياء، لكن الزمن زحف عليهم من الجانبين.

وكانت أمى تسـمع دائما إلى حكايات العز من فم (فاطمة هانم) بإصغـاء المتصوف إلى الموعظـة. ففعل هذا فى نفـس صديقتها فعل السحر فأحبتها كثيرا.

وفى ليلة مولد النبى رأيت المرأتين تعملان (الكسكسـى) عندنا فى حلوان لأن ابنة (السـنجق) لم تكن تجيد صنعه. ثم مرضت أمى بعد ذلك بعدة أيام.

التهبت ركبتاها وامتلأتا ماء ومنعها الطبيب من مغادرة الفراش لأن الروماتزم حاد يتطلـب راحة طويلة. ولما انقطعت أخبارها عن صديقتها جاءت تسـأل عنها ورأيت يومئذ عجبـا: كانت (فاطمة هانم) تبكى بغزارة بعين غير سليمة الأهداب لا تخلو من الكحل، وتقبل أمى فى كل مكان كأنها أختها وتتحسـس قدميها من تحت الغطاء فى تدليك خفيف وحب ورفق. وتمنت لو تكون هى المريضة.

قالت أمى وعلى وجهها شعاع ابتسام:

– إن أولادك أكثر احتياجا إليك من أولادى. (ودعت لها بالسلامة):

– لم أجد لى أختا إلا وأنا أرملة. ليتنى عرفتك قبل ذلك.

وفى اليوم التالى جاءت الأسرة كلها. وعرفت الكبير منها وهو طالب فىالتجارة المتوسطة. جدير حقا بأن تطعمه امرأة. قالت (فاطمة هانم) فى معرض تعريفنا به:

– هذا هو أكبر الصبيان. النار تخلف ترابا!! كان أبوه رجلا يلعب بالبيضة والحجر.

ثم نظرت إليه بعينها المكحولة وأهدابها المهوشة، فقابل نظرتها بنظرة تأنيب. فكفت. ثم استطردت بعد تنهد:

– لكن طول الأجل يبلغ الأمل.

أما الولد الأصغر فلا يعنينا منه شىء. وأما البنت الكبرى فكان اسمها (زينب). أخذت من (فاطمة هانم) طراوتها وطبعها المرن. طويلة الصمت تسرب عينيها فى خبث علقت عليه أمى ذات مرة – ولست أدرى أكان ذلك حقا أم قصدت به التنفير – فقالت:

– إنها من الهادئات وباطنها ثائر. ونظرتها من تحت تؤكد للفطن أنها لا تدع الفرصة الأولى تفلت منها!!.. كيف أنجبت تلك البلهاء كل ذلك الخبث؟!

لكن الحبل بينى وبين (زينب) كان قصيرا للغاية. لم يكن هناك فرصة نختلى فيها إن حدثتنى نفسى أن أنشئ علاقة غرام. كان طعم

العجين الأحمر على الشفاه يظهر فى فمى كلما رأيت صبغا. وعملية تعذيب الفريسة أو مداعباتها تعاودنى إذا خلوت بامرأة. وعلى أن (زينب) كانت رزينة جدا. يبدو أنها كتوم إلى حد تستطيع به كتم حمل غير مشروع. وكل هذه الظلال أبعدتنى عنها ذهنيا لأننى فشلت ذات مساء فى دخول (باب مفتوح)!

أما (بدرية) فكانت كثيرة الضحك زئبقية النظرات طوال وجود هذه الأسرة فى بيتنا. وقد نهرتها أمى بنظراتها الخنجرية كأنما تريد أن تقول لها: ألا ترين ما تفعله الأخرى؟!

وفى هذه الفترة بعد أن مضى على توظيفى أربع سنوات دخل على (عم سيد) الفراش ودخل خلفه الهواء البارد من فتحة الباب وقال فى أذنى: إن شخصا غريبا يطلبك فى الصالة ولا يريد أن يدخل. فلما خرجت لم أجد أحدا فتلفت دهشا فقال (عم سيد): أنا الذى أريدك يا فؤاد أفندى.

– خير (يا عم سيد).

فتنهد والحزن باد على وجهه:

– (فهمى) أفندى فى إجازة!!

– أعلم ذلك.

– إجازة مرضية.

– أعلم أيضا.. وماذا فى ذلك؟

– أحب أن أقول لك لأنك غال على: لقد ظهر أنه مصدور.

ثــم حملق فى بعينين لا تريان إلا على قرب ينســحب تحتهما أنــف كأنما ضغطت أرنبته بمشــبك. فانســحبت إلى الداخل صامتا حزينا.

وفى أول الشــهر التالى نزلت أمى إلى إدارة المعاشات تمشى على ســاقين لا تحملانها. وعادت متأخرة بعــد الظهر. ورأيت (فاطمة هــانم) آتية معها توصلها. تســندها وهى تصعد الســلالمك بحنان يســتوقف النظر. يــد تحت إبطها وذراع عنــد خصرها من خلف، وأمى تتهادى كأنما سحرها الموقف وترجوها ألا تخاف عليها فهى بخير والحمد لله.

* * *

«لقد نجــح الابن الأكبر لفاطمة هانم فى دبلــوم التجارة، وغدا يتوظف فى إحدى شــركات بنك مصر أو علــى الأقل فى (العوايد) بمسعى رجل فى طيبة الأستاذ «الجمال» يعرف حال الأسرة»...

هذا ما قالته أمى وهى تضع فى (الســبت) الكبير عدة زجاجات من الشربات وعدة أقماع من السكر وعشرين حبة من بواكير المانجو.

وكانــت (بدريــة) تنظر إلى الفســتان الذى لبســته فــى المرآة. و(سمــيرة) تحتج لأنها ســتبقى فى البيت. أما أنــا فقد كان عندى عمل إضافى بعد الظهر لزحمة الإدارة بكثير من الاستمارات.

وركبتا القطار قبلــى وهبطتا إلى العاصمة. وتركت (سميرة) فى البيت وانصرفت أنا الآخر.

كان الموظفــون فى هذا المســاء يتحدثون عن الحــال التى آل إليها (فهمى) فلم يبق الخبر ســرا مكتوما وتحدثــوا بعد ذلك عن الزواج وكيف أنه حصن. فلو كان هذا الشاب مؤهلا لما استنزفته النساء. ونظر إلى أكبرهم سنا بزاوية عينه وقال وعلى وجهه دلائل استخفاف:

– احذر أن تعملها يا فؤاد!

فضحــك الباقون. وقعت ضحكاتهم علــى صدروهم أو بين أكفهم أو فى ثنايا الاســتمارات والدوسيهات... فأحسست أننى جرحت. ورجحــت أن (فهمى) قص عليهم قصة المومس، فثرت لكرامتى ثم سألت فى غضب ذلك الذى فتح باب الكلام:

– ماذا تقصد؟

فأجاب ملطفا من الحدة:

– أقصد أنه من الخير لك أن تتزوج لتحفظ نصف... نصف... آه...

وعادت الضحكات فعاد غضبى وأخذت أجمع أوراقى لأنصرف.

ولمــا رأى الباقون مــا آل إليه الموقف لموا أطــراف الموضوع حتى استحال إلى جد خالص. وقال أكبرهم سنا وبوقار مصطنع:

– ليــس فى الأمر ما يجرح الكرامة يــا بنى العزيز، لا تحاول أن تخلق إشكالا. أنت شاب هادئ... إننا حقيقة ننصحك بالزواج.

وظلل الحجرة صمت قلق حتى انصرفنا، وأخذت وأنا فى القطار أفكر فى أمر الزواج ما دام هو أيســر ســبيل للحصــول على امرأة. لكننى وجدته مطلبا بعيد المنال.

ودخلت على الأسـرة بوجه منطفىء ببقايا الغضب وآثار الهم، ادعيت المرض حين استوضحتنى أمى سبب ما بى. على أنها نسيت ذلك بعد قليل وأخذت تحدثنى عن شئون (فاطمة هانم).

سمعتها تصف ابن الأرملة بأوصاف جديدة: «علامات الرجولة بادية عليه اليوم». كل شـىء يتغير حتما. هـل تذكر (صلاح) ابن خالتك؟ كان أخيب طالب ثم صار أنصح تاجر؟ وهناك أطفال يولدون فى حجم المفاتيح ثم يصيرون شـبابا، وفتيان يشرحون الصدور. كل شىء يتغير... آه...».

وتنهـدت وتمددت وطلبـت كوبا من عصير الليمون ثم أسـبلت عينيها كأنها تفكر...

إن الأمر الوحيد الذى يشـغلها هو أمر بنتهـا (بدرية)... فأنا رجل أملك أن أدير شـئون حياتى و(سميرة) جميلة تخطف العين بصفائهـا كمـا تفعل اللؤلؤة، فضـلا عن أنها موفقة فى دراسـتها ففـى جيبها مفتاح لبابين. وقد حدثتنى أمى فى عدة مناسـبات أن الواجـب الأكبر فى حياتها ينحصر فى مطالب بنتها الكبرى. على أننى أصبحت بعد سـنوات مـن حياتى العملية كأننى آلة. شـىء مصمت يجمع ويطرح ويضرب ويقسـم ويأكل ويشرب وينام. ويفكر فى حدود (أبونيه) القطـار والملابس ووجوه من حوله فى الديوان. وعقب ذلك الإحساس دب الملل إلى وجودى فشعرت كأننى أدور وأنا معصوب العينين كالثور فى الساقية.

وكتمت تذمرى عن أمى وكانت ملامحى غير الفصيحة سندا لى فيما أفعل. غير أن فراستها كانت تكشفنى فى بعض الليالى خصوصا عندما يصفو لنا الوقت فنتسامر. عندئذ تنطلق روحها العظيمة التى أحبها وأخافها. فتحدثنى بأحاديث تعلم نكران الذات وتقسم مملكة الوجود إلى قسمين: سماوى تربح فيه التجارة، وأرضى يسكنه الأنانيون.

وكان (فهمى) قريبا منا... فى (حلوان) فكنت أذهب إليه لأزوره وأحمل من أخباره كثيرا إلى إخوانى.

كنت أحسده فى مرضه كما كنت أحسده فى صحته. جاءت إحدى صديقاته تعوده وفى عينيها دمعة وفى قلبها لوعة. وابتسم لها وهو واقف وظهره نحو الشباك ابتسامة عريضة:

– أوه... حين نراكن ننسى حتما أننا مرضى؟!

وضحك من صدره الأجوف وهو يضغط كفها بين كفيه وكنت جالسا على مقربة من النافذة أستطيع أن أرى الفضاء فتركت عينى تسبحان فيه. ولما عدت فنظرت رأيت روحه تتأجج فى عينيه. نفس لا تنهزم.

وانطلق (فهمى) عندما دخلت صديقته يتحدث عما يضيع به الوقت فى المصحة، إنه يقرأ ويسمع الذين يريدون. وينظم حفلات سمر ويرقص ويغنى. ومن بين رنات الضحك كان السعال يتصاعد فى تتابع شبه متفق عليه كتتابع نقيق الضفادع.وكلهم هناك يدورون حوله ويسألونه ويلتمسون عنده التسلية.

وتذكـرت ذلك كله وأنا أخوض الحدائق فى طريقى إلى مسـكننا فاحتقـرت الطينة التـى خلقت منها وأنا أضـع حذائى على حفنة سماد سقطت فى الممشى. كلانا يمثل الطرفين (فهمى) للتطرف وأنا للجمود. فلو أن شابا ما وقف فى منتصف الطريق بينى وبينه لكان شيئا عظيما.

وفى اليوم التالى وقعت تجربة جديدة.

ذهبت وقـت العصر قبل رجوعى مـن الإدارة إلى منزل (فاطمة هـانم) بتكليف من أمى. وكان ذلك للمرة الأولى. حملت إليها نقودا طلبتها لحاجة. كانوا فى حارة ضيقة يكاد السكان يتصافحون فيها مـن النوافذ إن بذلوا شـيئا من الجهد. وقلت فى نفسـى وأنا أضغط جرس الباب شيئا غريبا:

– لـو فرضنـا أننى وجـدت (زينب) وحدهـا وأنها سمحت لى بالدخول وأنها فتحت باب الغزل فماذا يكون موقفى منها؟

وتذكـرت المصدور الذى مازال حبيب النسـاء، يحلم بالشـفاء ويرقص ويغنى فى الليل ليعود من جديد فيشاطرهن الحياة السعيدة.

ودق قلبـى بعنف وحنق مع دقات الجـرس. كان يظن كأنه فى فراغ ويوحى إلى بأن المكان ليس فيه من يرد. وكدت أيأس وأنصرف.

وحين اسـتدرت راجعـا صر المصراع وانفتح عـن وجه (زينب) رأسـها ملفوف بمنشفة لكن شـعرها المبلول كان باديا من خلالها. وأحسست أن للماء سحرا إذا مس الوجوه النضرة. كان فى قسماتها

نداء غير موجه لأحد ويقصد به كل أحد. وسلمت على بكف فيها رطوبة الحمام وأشارت إلى حجرة قريبة جدا من باب الدخول فلا يكاد الضيف يخطو خطوة فى الصالة.

وكنت موقنا أنها وحدها وإلا ما فتحت وهى على هذه الحالة. وفى خمس دقائق تماما أو تزيد قليلا كنت أنا أتفحص المكان وكانت هى تلبس ثيابها. ثم رجعت تحمل فنجالا من الشاى كأنه كان جاهزا. منحنية به نحو الأمام تحمله فى رشاقة تدهش المحروم.

ولم يسعنى أن أتصور إلا أنها زوجتى. وأنها لم تستطع أن تدخل الحمام صباحا بعد انصرافى فتأخرت ريثما تتم مطالب البيت. وهأنذا قد عدت فوجدتها تغتسل!! وهى تضع الشاى أمامى على المنضدة فى تلطف التى عشقت زوجها. وخيل إلى أن فى وسعى أن أشكرها بقبلة. أو أن أطلب منها قطعة من السكر. أو أن أشرب من موضع فمها على الفنجال أو أن أصنع ما أشاء!! وتدخل فورا فى الموقف المخدر الناعس امرأتان قويتان تصلح كل واحدة منهما على انفراد أن تعيد إليه وعيه الكامل. إحداهما أمى والأخرى تلك التى قالت لى ذات مساء:

– «توتو.. ألا ترانى؟!» ثم جعلت تتأوه كأنها مجروحة..

وفطنت إلى (زينب) وهى تؤنسنى بابتسامة:

– أنت فى بيتك.. لم أتعب فى شىء فالوابور كان مشعلا بطبيعة الحال.. ذهبت أمى مع أخى إلى بعض ذوى الشأن... آه... نرجو

أن يلتحــق بوظيفة قريبا.. هيء هيء.. كل شــيء له أوان... أليس كذلك؟!

ثــم نهضت تتلوى وفــى عينيها نظرة ســقيمة، وفتحت الباب للولد الأصغر. دخل وســلم. وجلس على أحد الكراســى فى بنطلون قصير تبدو منه أفخاذ سمينة. وكانت الجروح والكدمات التى على ركبتيه وساقه والخدوش التى فى وجهه موضع الحديث بيننا:

– هل كنت شقيا فى صغرك هكذا يا أستاذ فؤاد؟

(فتنهدت):

– كلا. ولا فى كبرى!

فقالت وكأنها تتحسر على شيء فاتنى:

– ولا فى كبرك؟!... وهل يظهر البلح إلا فى موسم البلح؟!...

فقدمت إليها الأمانة التى أرســلتها أمى. فى صمت. ولم أستمع جيدا إلى كلمات شكرها لأننى كنت حزينا.

وحــين وطئت عتبة الباب من الخارج كانت عربة البلح لا تزال واقفــة، حولها نســوة وصبيان. وصوت البائع يلعلــع كلما فرغ من الوزنة وألقى الميزان ذى السلاسل فى ضجة مصطنعة:

– «يا حيانى... يا رطب»!!

* * *

٨

خرجت هذا المساء باكرا من الإدارة وأنا أشعر بالسأم. خيل إلى أن قطار الضاحية سينقلنى إلى المنفى. والدنيا شتاء والليل فى الضواحى طويل والجبل ينام منذ الغروب. وتهب ريح فتقفل النوافذ. ولا يرى الضوء إلا من مصابيح الشارع الواسع المكنوس ومن خلف المصاريع الخشبية. وعندئذ تئز الأشجار وحدها فى الطرقات والحديقة. وتأوى (بدرية) إلى فراشها باكرا من مجهود النهار. وتسهر (سميرة) تذاكر. وتجلس أمى فتتلهى بأى عمل أو حديث ثم لا تلبث أن يثقل رأسها بالنوم كأنها شربت فتنهض لترقد. وأبقى وحدى أسامر الليل وأستمع إلى نفسى. والليالى طويلة، والنهار متشابه. والحركات الرتيبة حتى ولو كانت موسيقا تقتل فى الأعصاب توثب اليقظة.

ولما خرجت من الإدارة صممت على ألا أعود إلى البيت. سأذهب إلى جهنم، أريد أن أغير اتجاهى لبضعة أيام حتى ولو إلى مستشفى وحجزنى القطار الذاهب إلى حلوان وأنا على وشك عبور (المزلقان) إلى ميدان (لاظوغلى) فوجدتنى بحركة غير إرادية أبصق على آخر عربة فيه وهتفت فى نفسى «مع السلامة»!

وهناك فى الميدان وقفت أحملق فى كل شىء وفى وجه هذا التمثال المغفل. وسألت عما عمله صاحبه ثم انصرفت.

واتخـذت طريقا مضادا للمحطة التى أركب منها عادة حتى آمن على نفسـى من العودة. سـرت أفكر. وفجأة وثب إلى ذهنى خاطر. لمـاذا لا أذهـب إلى بيت (فاطمة هانم) فأسـأل... عن من؟... هناك أشـياء كثيرة: هل توظف ابنها؟ هل هـى فى صحة جيدة؟ إننا لم نرها منذ أسبوع كامل. هل تحتاج إلى معونة ما؟ إن أمى مثل أختها وأحسن من أختها!!

لكنى لم أكن أحمل تصريحا بالزيارة.

وضحكت من أنفى. هل من الضرورى أن يحمل الرجال التصاريح؟ وشتمت ناسا كثيرين فى سرى، أنت تعرف بعضهم. لماذا لا أذهب إلى حيث أشاء؟! ولماذا أقدم تفسيرا لكل عمل وتقريرا عن كل وقت؟

كنت معبأ بطاقة شريرة ينبغى لها أن تفرغ. وهذه الطاقة يجب أن يفسح لها الطريق بشكل ما. فسرت أسرع الخطى إلى هناك.

وحين صعدت السلم الملتوى ورأيت مصباح جاز صغيرا معلقا فى ركنة لينير الطريق تذكرت الشـرخ الموجـود فىبيتنا. إنه يقع من سـلمنا موقع المصباح من هذا السـلم. ثم أعرضت عن الفكرة ودققت الجرس. وشـهقت (فاطمة هانم) لأنها هى التى فتحت لى وسارت أمامى لتفتح حجرة الضيوف. وكانت أردافها الملفوفة تهتز بلين مع صوتها اللين وحركتها الملساء. ترحيب أموى ناعم يجعل المرء يفكر فى تغيير أمه خصوصا لشاب مثلى.

وكان الخير عميما فى هذه الليلة، فقد دخلت بيتهم مع الأفراح

فابن الأرملة سيستلم عمله فى بنك مصر وقد ذهب ليعبر عن فرحه فى سهرة فى السينما مع بعض أصدقائه. وكان الولد الثانى فى الداخل يرفع صوته فى قطعة من الشعر. أما (زينب) فلم تكن دخلت بعد...

ثم جاءت تحمل صينية عليها برتقال وسكاكين وفوط مخططة على هيئة مربعات. والدفء ينبعث من كل ما فيها فى هذه الليلة الباردة.

وقدمت لى كل منهما برتقالة. بدأت الأم ثم ثنت (زينب). ثم قدمت لى الفتاة طرف فوطة مبلولة ومعها ابتسامة فمسحت يدى ولم تغادر الأم مكانها فشاركتها الجلوس. وتناولنا الحياة من كل نواحيها إلا ما يثير ريبتى فى أنهم يحبوننى لغير وجه الله. وأخيرا فطنت على طرقة. لم تكن فى الخارج بل كانت فى نفسى حين تذكرت أننى مكلف أن أقدم حسابا عن الوقت. وكان الوقت يمر بسرعة فقد انقضت ساعتان ونحن جلوس. هل القوة التى تدفع (الوقت) فى مجرى الزمن تنبع من داخلنا نحن؟!

واستأذنت لأنصرف. وحفت بى المرأتان تودعانى فى عذوبة. ومررت من بينهما لأخرج من الباب وأنا أشعر بلذة منغصة. ولم ينغلق المصراع خلفى إلا بعد أن هبطت عشرين درجة. وألقيت نظرة على المصباح وكان يغمز بعينه. ولم يكن الهواء فى الشارع جميلا ولا منعشا كما تخيلت.

كانت الساعة قد دخلت على التاسعة وفى السماء سحاب يحجب

النجوم والليل كأنه متدثر من البرد. وأحسست بالمسئولية فحثثت الخطى نحو محطة السكة الحديد وكان القطار آهلا بالركاب فالتمست العذر لنفسى:

– كل هؤلاء عائدون إلى البيوت. ولا يزال غيرهم فى الخارج.

وحين نبح الكلب فى الحديقة وأنا أعبر فضاءها إلى درجات السلاملك انفتح الباب وظهر قوام أمى فى فتحته تحت النور المغلق فى الصالة. وكان القلق باديا على وجهها بشكل مزعج حتى أننى رثيت لها وتضايقت منها:

– مساء الخير يا ماما.

فردت بعسر كأنها تحمل شيئا ثقيلا:

– مساء الخير... كل هذا الوقت فى العمل؟

ففتحت لى باب الكذب فوقفت مترددا. وكنا فى هذه اللحظة قد دخلنا حجرتى وأشعلت نورها فانسكب قويا على وجهينا. وحملقت فى بعينين فاحصتين. وهى جالسة فى انتظار الإجابة وكفاها متلاصقتان موضوعتان فى حجرها.

قلت متلجلجا:

– فى العمل؟... لا والله... قلت فى نفسى هذا المساء... أتنزه قليلا...

فأجابت بموافقة أدنى إلى المخالفة:

– لا بأس.. هل نقيد أبناءنا كما يقيد الدجاج؟!... فقط... قلقت

عليك.

وأحسست أن بوادر غضب تلعب برأسى كبوادر السكر فقلت وأنا أشد بيجامتى من على الشماعة:

– أنــا لم أعد صغــيرا لتقلقى على. إن (سميرة) نفســها لم تعد صغيرة!

ولم أتبــين – وإن كان ذلــك واقعــا – أن كلماتــى كانــت كرجم الحجــارة. كان وجهى بعيــدا عن وجههـا فشــجعنى ذلك على ما فعلت. ولما التقى بصرنا رأيــت العجب فى عينيها مخلوطا ببوادر دموع: فندمت.

أتــدرى علام ندمت؟! على أننى نســفت القنطرة التى ســأعبر عليهــا، فليس فى الإمــكان بعد الذى حدث أن أقــول لأمى: إننى كنت فى بيت (فاطمة هانم) فوجدت نفسى مضطرا إلى الكذب، قلت فى ملاينة مفاجئة:

– آسف يا ماما. من حقك أن تقلقى على ولو من حوادث الطريق.. آ... أنا...

قالــت وهى تنظر فى حجرها لكن بتأثر وحنق على الفطرة مثلا تقوله الأمهات فى المآزق:

«قلبــى على ولدى انفطر، وقلب ولــدى على حجر»... لا تحزن يا بنى. أعاهدك على ألا أعود. إن شئت.

وهممت أن أعترف وليكن ما يكون. لكنها قامت لتجهز عشائى.

وجلست آكل وحدى فقد زعمت أنها تعشت. وكانت (بدرية) نائمة منـذ وقـت باكر من أثر مجهـود النهار. أما (سمـيرة) فقد كانت منكفئة على الكتاب.

* * *

وفى الصباح رأيت تساؤلا وقحا فى عين (بدرية)، وكلاما يشبه الوشاية بظنون أمى كان يخالط ابتسامة (سميرة).

وظللـت طول النهار شـاردا أجمع بـدل الطـرح وأضرب بدل القسمة. والشـجار من حولى لا ينقطع بين اثنين من الزملاء، نهار كله دخان!

ولما عدت وقت الظهر لم أجد أمى فى البيت. وخبرتنى (بدرية) وهـى تضع الغداء أنها ربما تتأخـر فهناك طلبات راحت تقضيها. وحدثتنى نفسـى أنها ستمر على فاطمة هانم، إن لم يكن ذلك حتما ففى أغلب الظن.

وتغديت ونمت. واسـتيقظت وقت العصر والشمس دافئة تذهب الجبل المبلول وتهب الضاحية حياة دفيئة. وسألت عن أمى فعلمت أنها فوق. كانـت تطعم الدجاج وتفحص الأرانب فى الحظيرة التى أقمناها فى الركن. فصعدت إليها ولم أشأ أن أنتظر نزولها.

لعلها لم تسمع وقع أقدامى لأننى كنت أمشى بخفة. ولما اقتربت منهـا سمعتها تدندن بصوت حزين وكان ظهرها إلى ناحية السـلم فأردت أن أنبهها بطريقة مرحة ضاحكا قبل أن ألقى إليها التحية:

– الله؟!.. أتغنين يا ماما؟! هل تعرفين أن صوتك جميل؟!

فسكتت وألقت إلى من فوق كتفها نظرة وقالت باختصار:

– يمكن!!...

فانطفأ المرح فى نفسى ووقفت حائرا كمن ضل الطريق.

وانقضت فترة رأيت فيها تطاحن الدجاج وانزواء الأرانب وسكون أمى الذى أعرفه ويعرفه الناس فى الطبيعة باسم السكون الذى يسبق العاصفة.

– هل أنت مريضة يا ماما؟!

قلت ذلك برفق من يطلب الغفران – فى صمت – عن ذنب متفق عليه دون أن يتعرض أحد الطرفين لإثارة الموضوع. فأجابت بنفس الإجابة وباختصار:

– يمكن!!

فتركتها ومشيت نحو السور إلى حيث ألقيت نظرة على الدنيا: طريق المرصد وكهوف الجبل والكلب المنزوى عند شجرة الخروع وشجرة البرتقال المنفوضة من الثمر. وقبل أن تهم بالنزول إلى تحت اعترضت طريقها. وقلت لها بقوة من يصر على تصفية حساب لكن الابتسامة كانت على وجهى:

– لماذا أنت غاضبة؟

– أنا؟!

– نعم!

فقالت بهدوء شديد وبعد فترة صمت:

– لا شيء إلا أنك أوقعتنى فى إحراج. كان يجب أن أحمل إليها بعض الهدايا بمناسبة توظيف ابنها. فقد ظنت أنك بلغتنى وأننى ذهبت أهنىء. (وعندئذ كتمت عنها ما فى نفسى ثم نظرت إلى نظرة حدت بها بعيدا عنها على حين ظلت تقول):

– لماذا تكذب على أمك... هل تظن أننى أعترض سبيل رغباتك؟!... دخلنا يكفينا يا بنى العزيز. على أنك لم تبذل بعد تضحية فى سبيل أحد!

وظللت صامتا لا أتكلم والأشعة الحمراء على وجهى ترسم الخجل مزدوجا. فلما رأت أن خصمها لا يقاوم نبع من قلبها الحنان:

– يخيل إلى أنك الآن تتمنى بينك وبين نفسك أن... أموت.

فاغرورقت عيناى بالدموع وقلت بصوت مخنوق:

– إلى هذه الدرجة؟! أبدا والله العظيم!!

وانتحيت إلى ركن السطوح فتركتنى ونزلت. وظللت واقفا حيث كنت حتى سحبت الشمس أشعتها من على الرمال وهبط الظلام وبرد الجو.

وحددت هذه الحادثة الاتجاه النفسى لأمى فأصبحت جازما بأنها تخاف على من (زينب). وأنها تريد المصاهرة على وجه آخر. فأفقت وأخذت أترقب سير العلاقة بين الأرملتين بحرص شديد.

إن (فاطمة هانم) تبدو ساذجة وأمى شديدة العمق، لكن علاقة أخرى بدأت تجد بين أمى وإحدى جاراتها فى البيت الملاصق.

وكانــت العلاقة القديمة قائمة كأنها طلــل ومن خلال الهدايا التى كنا نتبادلها مع الســت (فتحية) بدا التصميــم الجديد، فقد ألقت أمى شبكتها فى بحيرة أخرى.

* * *

⑨

رأيت على الفطور الصبح طبقا من البليلة باللبن والسكر والزبدة وجوز الهند. ولما سألت عن مصدر هذه الخيرات عرفت أنها من عند (فتحية) وكانت شـواغل شتى تلعب برأسى وأنا فى القطار. وحين ذهبت إلى الإدارة كان الموظفون يتكلمون عن قرب عودة (فهمى) إلى العمل.

وصوروا الحادث على أنه معجزة. فرد أكبرهم سنا وهو ينظف القلم بقطعة من النشاف: «شباب... يا أفندم الشباب هو الذى صنع المعجزة لا الطب ولا الدواء» ثم انكب على الورق يجمع ويطرح.

وقال أحد الشبان ممن يتمنون الشر للناس بلا مبرر شخصى ولا مـبرر عام قال وهو يشـير إلى النافذة: إنه علـى كل حال مثل هذا اللوح من الزجاج... مشروخ ومتماسك. فهل ينجو من ريح الشتاء؟

فنظـرت إليـه باشمئزاز وصمـت موقنا أن (فهمـى) لن يموت ببسـاطة فهو يجدد بالمرح خلاياه كل مسـاء وصباح، مشـدودا إلى (الحياة) بسلسلة (الحب) ثم تأوهت... (آه...)!!

وجاءنـى من أقصى الحجرة صوت يقول فى دعابة: «سـلامتك يا بطل!!» وانفتح الباب بحذر وأطل منه وجه «عم سيد»، ثعلبيا خبيثا على ملامحه بعض الأخبار. وأشار إلى برأسه فخرجت من المكتب.

– ناس بانتظارك فى الصالة الخارجية يا أستاذ فؤاد!!

– من هم يا «عم سيد»؟

– لم يخبرونى بأسمائهم.

كانت هى هى بلحمها ودمها وشفتها التى تشبه حبة الكريز إذا ما ارتخت فى ابتسامة. عليها ثوب ربيعى أبيض بأزهار زرقاء.

ولم تكن (زينب) وحدها فقد كانت معها أمها، فى مسوحها السود: معطف الحرير فوق الفستان. والطرحة ملفوفة على وجهها التركى. وبقية الكحل فى أهدابها المهوشة. وابتسامة حنون مغبونة شاكية تتخايل على شفتيها.

والتفت خلفى بحركة لا إرادية كأن شخصا يرانى!! ثم استحيت من نفسى وأقدمت وقلت بلهجة لم تخل من الهزات:

– خيرا يا خالتى؟

فردت بلهجة متكسرة وهى تهز رأسها فأشعرتنى أن القصة طويلة:

– هل نتكلم هنا؟ إن كان عندك وقت فسر معنا عدة دقائق.

وخرجنا. أنا أمامهما وهما ورائى. واتجهنا إلى ميدان (لاظوغلى).

وحين استوى بنا السير رأيت نفسى بين المرأتين. وقبل أن تفتح السيدة كلاما فكرت بسرعة موازنا بين صرامة السيف ولين الأفعى.

إن فاطمة هانم تبدو بلهاء تستطيع أن تصل إلى ما تريد. تسرق الروح كما يفعل الترف وتسلب العقل كما تفعل الخمر. أما أمى فإنها قاطعة كحد السيف.

ولما وصلنا إلى (المزلقان) حجزنا القطار الذاهب إلى (حلوان)

فنظـرت إليه كأنــه يعرف. وما لبثــت (فاطمة هــانم) أن فتحت الموضوع فتكلمت ونحن نضرب فى الطرقات كالعشــاق لا يجدون ما يلجأون إليه:

– ألم تخبرك ماما عن الذى حدث بيننا أخيرا؟

– لا. مطلقا!!

فــبرق الدمع عند أهدابها كأنها تذكرت مأســاة. ثم ســارت إلى جوارى حتى تلامس كتفانا وأنشأت تحكى:

«لقد تغيرت (ماما) فجأة... لســت أعرف السبب. كان ذلك بعد زيارتك الأخيرة لنا. كانت أختى. إننى مائلة البخت، كنت أشــكو لها كل ما يؤلمنى حتى سوء تصرفات ابننا الخائب ليته لم يتوظف. وفجأة أعرضت أمك عنى!!».

«شــعرت أن هناك ذنبا لم تصارحنى بــه فاعتذرت إليها لكنها لم تغفــره حتى اليوم الذى نلتقى فيه فى المالية لا تفعل أكثر من أن تصافحنى وتنصرف».

كنا أختين!!.. (وبكت).

وأمســكت (زينب) كفى عــدة مرات وهى تعلــق على الحديث بطريقة لا تحدد المسئولية واصطدم ذراعها فى جنبى واصطدم كتفى فى صدرها. آه... ووجدتنى مضطرا أن أضع كفى على ظهرها ونحن نعبر شارعا مزحوما وكانت أمها قد تسرعت وعبرت قبلنا. ولمست الحياة عن قرب فيها. أشبه بالذى ينظر إلى الثمار من خلال السور.

وأحسست حيال أمى بضغينة مشوبة بالرثاء وإن لم أحترم فى قرارة نفسى الطريقة التى سلكتها (فاطمة هانم) معى بمحاولتها الدخول من الباب الخلفى. على أننى شعرت بتجاوب حيال (زينب). وهذا ولا شك لم يقع بين (بدرية) وبين ابن (فاطمة هانم) على الرغم من أن أمى صحبتها إلى بيتهم يوما ما.

وامتد بنا المسير وامتد بنا الحديث. وبدأ هذا العمل غير الواضح يتخذ فى نفسى وضعا عاديا شائعا مألوفا. وكانت المرأة الكبيرة تتدفق بالحنان وهى تتكلم حتى تخيلت أننى ابنها. وعلى الجانب الآخر كانت الفتاة تناوشنى برفق وحرص ونعومة. وكان على أن أعلن قرارى لأنهما طالبتانى به عدة مرات. فأجبت ونحن واقفون عند مفترق طرق:

– كان على أمى أن تشرح لكم وجهة نظرها. لكن... لا تحزنى يا خالتى... ولو من أجل خاطرى أنا.

فلمعت على وجهيهما ابتسامة من نوع واحد. تحمل معنى من ظفر فجأة بشىء غير متوقع. وقالت الأم:

هل تريد والدتك أن تقطع العلاقة بيننا فتحرمنا أن نراك؟!

ونظرت إلى (زينب) فإذا بها مطرقة تشير أهدابها إلى خدها الوردى فلم أجب إلا بقول:

– (تتعدل). وصافحتهما وانصرفت.

ولما رجعت إلى الإدارة أحسست بضيق شديد. وكان الزملاء

يثرثــرون وعادوا ثانيا إلى موضوع (فهمى) فقرروا أن أمره لن يصلح إلا بالزواج.

وقال أحدهم:

– بالعكس. ليس الزواج من مصلحته.

– بالعكــس. بــل هو أصلح لــه لأنه لن يكف عن دائــه القديم. (وغمز بعينه).

– ليسكت المرضى حتى يتزوج الأصحاء.

وأحسســت أنهم يعنوننى وأنهــم يعرفون حقيقــة الوتد الذى شددت إليه فقلت دون أن أشعر:

– كل إنسان أدرى بمصلحته.

فقال أكبرهم سنا وهو ينظر فى اتجاه آخر:

– أنت اليوم عصبى يا سيد فؤاد. مالك؟ هل لطمك (الحب) على خدك الأيمن فأدرت له خدك الأيسر؟... يا بنى...

فوقعت ضحكاتهم على صدورهم وعلى الاستمارات والدوسيهات لكننى لم أعلق بشىء.

* * *

قلت فى نفسى وأنا أنزل ظهرا إلى رصيف المحطة: لقد نسيت!! كان يجب أن أسأل (فاطمة هانم) عما إذا كنت فى حل أن أخبر أمى بهذا اللقاء والعتاب القائم فى نفسها ونفس بنتها!

وكففت عن المســير على مقربة من موقف (الحنطور) وكان أحد

السائقين جالسا على الكرسى ورأسه مثقل بالنوم وعيناه مغمضتان فى هناوة بال أو على الأقل لم يكن فى رأسه مشكلة. ولم أجد حلا مناسبا. ولم أرسم خطة معينة. بل تركت الظروف تملى علىَّ ما تشاء وسرت بعد أن أفقت على عطسة حصان.

وكانت أمى – على الغداء – مرحة قليلا تحاول أن تذكر تفاصيل رؤيا رأتها فى الليل بيضاء مبشرة. و(بدرية) تشكو مغصا حادا جالسة معرضة عن الأكل و(سميرة) كأنها زهرة تخشى أن تلوث شفتيها وهى تأكل، وتنظر أحيانا إلى صدرها الناهد من فتحة الثوب.

واختليت بأمى بعد الغداء وكنت فى هذا اليوم نادر الشجاعة. وسألتها لأجس المخاضة قبل أن أدلف إلى الماء:

– (فاطمة هانم) لا تأتى إلينا كثيرا... هل هى مريضة؟

فضحكت محاولة أن تظهر بمظهر الأذكياء. وجلسنا على الكنبة تفصل بيننا المساند وكانت أمى فى هدوء صاحب الحق الواثق من عدالة القاضى فأخذت تقول:

– إننى سقيمة من الفهم. إن هذه المرأة واسعة الحيلة. ظننت أنها ستعطينا فإذا بها جاءت لتأخذ منا!! هل أنت فاهم؟!

– فاهم!! (وأومأت برأسى).

– لذلك رأيت من المصلحة أن أبتعد عنها. إن بيتنا لا يحتمل هزة واحدة يا فؤاد وأنت يا بنى تعرف كل شىء.

ثم بدا عليها التأثر واعتراها ضعف النساء ونظرت باسترحام

يخالطه حب وثقة. فاهتززت لذلك هزة شـديدة حتى كدت أبكى. ولم أجد مجالا لأقول شـيئا عن حوادث اليوم، ولم أشعر بندم كبير لأن الظروف هى التى تجبرنى أن أكذب على أمى.

– لا تخافى يا ماما!!

وكان صوتـى مخنوقا وقواى خائرة. لكـن الحديث انقطع بيننا على أثر دخول (بدرية) لتقول بصوت هامس كأنه يحمل سرا.

– ماما. (الست فتحية) تعبر الباب الخارجى فى طريقها إلينا.

وفـرت تتلقاها ثـم قامت أمى بعد أن ألقت علـى نظرة كان لها مدلولها...

* * *

وفى المساء مالت أمى تقول:

– لقد اتفقنا يا فؤاد.

وكان على وجهها دلائل ظفر غير كبير. فسألتها متلهفا:

علام يا ماما؟

– على زواج... سميرة!

– سميرة؟!

– نعم. سميرة!!

وأكدت قولها بعينيهـا، ففهمت لماذا بدت الفرحة غير كبيرة. ونظرت فى كفها وهمست:

– لم يكن هناك مفـر أبدا. حاولت أن أجعلهم يعدون بالترتيب لكنهم أصروا على جعل (ثلاثة) قبل (اثنين).

– هيه...

– ونمت ليلتئذ مثقلة بالفكر فإذا أبوك يزورنى ويقول لى:

«لا تكونى عنيدة يا أم فؤاد!!... فى حياتى وبعد موتى؟!... ما هذا؟! فاستيقظت أنتحب!».

– هيه...

– رشدى؟!

فقالت ولم تفارقها النبرة الحزينة:

– رشدى. إنه مدرس على أبواب المستقبل. لا يقيم فى بلد واحد، لكن... مع السلامة. (وطوحت كفها كأنها تذب بعوضا وعلى وجهها علامة تعب).

– تتكلمين بحزن!! ألا تشعرين يا ماما أن عقبة ما ستتنحى عن الطريق؟!

فتنهدت:

– تمام. لكن (بدرية) تشغل بالى باستمرار. لا تلمنى يا بنى!

ومشت الحياة فى بيتنا بطريقة تدعو إلى التأمل. انقطعت (سميرة) عن الدراسة وأقامت مع أختها طول الوقت. ونشب عداء خفى بين الفتاتين. كانت (بدرية) تنظر إلى أختها على أنها مغتصبة سلبتها حقا طبيعيا منحتها الحياة إياه. والصغرى تحتمل فى صبر صامت وتبكى عندما تدرك أنه لا مخرج لها. وألقى عبء البيت عليها عقابا لها!! نتيجة إضراب (بدرية) عن العمل وعدم تعرض أمى لها مدفوعة بسببين: العطف والمدارة.

ثم تفاقمت المدارة حتى أصبحت شبه تحيز، لأن الكبرى كانت تلبس وتتزين ثم تنتحى ناحية بعيدة عن أختها فإذا أمى – القاطعة كالسيف فى معاملتها لى – تجنح إلى حيث تجنح الكبرى فتحس الأخرى بعزلة وصمت فتبكى وحدها.

وفى أحد أيام الجمع جاء العريس يتغدى عندنا. وطبيعى أن تقوم فى البيت استعدادات وتطبخ فيه أصناف غير مألوفة حتى الكشك بالدجاج. ولبست (بدرية) منذ الصباح ملابس نظيفة وانتحت ناحية بعيدة من البيت وادعت أن آلاما حادة تفرى كليتيها وأنها لا تستطيع إلا أن تستلقى على الفراش. أما الصغيرة فقد كانت أشبه بالخادم الحسناء. منذ مطلع الصبح وهى تكنس وتمسح بصحة رقيقة وكفين مثل بروة الصابون وحركات لطيفة مثل حركة بنات المدارس فى حصة الألعاب.

ورأيت المنظر بنفسى، فأثارنى الوضع. فاستأذنت أمى فى أن أتصرف، لكنها لم تسمح لى ونحتنى عن الفتاة بنظرة جانبية كأنها خنجر. ثم أمسكت ذراعها ودخلت بها إحدى الحجرات. وبعد ربع ساعة خرجت البنت دامعة العين، والأم على وجهها غضب. لكنها بعد ذلك خلعت ثيابها النظيفة ودخلت المطبخ.

أدركت أن فى الدنيا ناسا يحملون فى كيانهم مؤهلاتهم التى تساعد الغير على أن يظلمهم. وقد كانت (سميرة) واحدة من هؤلاء.

كانت تقول لى بعينيها النديتين اللطيفتين: لا أريد أن أتزوج. فليتك تساعدنى. أو تقول أحيانا أخرى: متى أخرج من هذا البيت

فأنا عاجزة عن الدفاع غير قادرة على المتاعب.

وكدت أشعر أنها غريبة ليست بنت أبى. وانتقل هذا الإحساس إلى أمـى التى غلبتهـا الأوضاع وقهرتها الحـوادث. فبذلت جهدا كبيرا فى إنهاء المهمة والفراغ من التجهيز.

وكانت تغيب كثـيرا عن البيت وترجع محملـة بالبضاعة دائخة شـاحبة الوجه. ورأيتهـا مرة. قابلتها وهى نازلـة من القطار تحمل تحـت إبطيها حاجات ثقيلة ونقطة عرق معلقـة على ذقنها، وتراب الجبل راسـب فوق كتفيها وفى مشـيتها عرج خفيـف فخطفت منها الأشياء وعدت معها إلى البيت والدموع فى مقلتى. ارتمت على الفراش ونادت (بدرية) لتدلك أطرافها لكنها انصرفت فى سماجة، متجاهلة أنها سمعت. أو كأن أختها هى المكلفة بإصلاح هذا لأنها هى السبب!

ولما رأيت شـبه فجيعة طافية على ملامح أمى أقسـمت ألا يقوم بهذا العمل غيرى. ودلكت كفيها ثم قبلت إحداهما وشـرعت أدلك لها قدميها.

وتبادلنا نظـرة حنان. وكان فى عينيها اسـتغفار خفى. وفجأة سألتنى سؤالا لأول مرة:

– فؤاد!

– نعم.

– أتحب أمك؟

فقلت مبتسما:

– إلى متى تظلين تطلبين الدليل؟!

فصمتت قليلا ثم قامت فجلست فى الفراش وهمست:

– بعد زواج (سميرة) نكون قد قطعنا نصف المرحلة.

– يعنى؟

– يعنى أننى أرجو أن أعيش حتى أزوجك.

فدب الفـرح إلى قلبى كأننـى طفل وعد بلعبـة وأعلنت لها فى حماسـة أننى مستعد أن أفعل كل شـىء من أجلها حتى لو حرمت على الزواج.

فوسعت عينيها وهمست تقول:

– لا تقـل هـذا. أريد أن أعيـش من أجلك.. ولكـن... هب أنك تزوجت امرأة حسناء فهل تراها قادرة على أن تنسيك أمك؟

فسألت مستبعدا فرضها:

– وهل... (لكننى تحولت إلى طريق آخر) ستفعل؟

– غالبا ما تفعل الزوجات ما قلته لك.

– وهل... (لكنى تحولت إلى طريق آخر) سـتفعل (سميرة) مع الست (فتحية) نفس الشىء؟

فضحكت ملء صدرها وقالت وهى تربت على خدى:

– يا لك من ولد ناصح. فؤاد. لقد كبرت!!

* * *

١٠

مــلأ الضجيج أنحاء الإدارة فــى هذا اليوم بعــودة (فهمى) إلى العمــل. كان على وجهه نداوة الرضيــع. نضارة نباتية لا تدل على القوة لكنه كان وســيما على كل حال. وجلس يحكى عن الليالى التى ســهرها والآلام التى كانت تنتشر فى كل ركن. فقال له أكبرنا سنا ليخرجه عن هذا المجال:

– دعك من هذا يا حلو واحك لنا عن مغامراتك هناك.

– هناك؟!

– نعم. ألم يكن هناك ممرضات من النوع الذى جاء يســأل عنك فى غيابك؟

ومن خلال عاصفة الضحك أطل وجه (عم ســيد) من فتحة الباب والاهتمام باد على محياه وأشار إلى بسبابته فخرجت.

– من يا «عم سيد»؟

– هم نفسهم.

– هم نفسهم؟!

ولكننى رأيت (زينب) وحدها.

ونظــرت إليها فى ســهوم. كنت فى هــذه المرحلة فى صف أمى أناصــر قضيتهــا. وحين تظفــر القضايــا ببوادر نجــاح يأخذ عدد مناصريها فى التكاثر.

وبدا جمالها ذليلا شيئا ما. ووجهها على مقربة من أذنها شديد الحمـرة كأنها صفعت بكـف. واهتزت أهدابهـا عجبا من جفاف لقائى فأفقت لنفسى:

– ماذا حدث يا «زينب»؟

فقالت بلين وطريقة كأنها هزيمة:

– لا شـىء. غير أن لقاءك لا يشـجعنى على أن أتكلم... هل أنا مخطئة فى مجيئى إليك؟

وببسـاطة أوقفتنى موقف المعتذر. وسـرنا جنبا إلى جنب وفى نفس الاتجاه... نحو (لاظوغلى). واعترض القطار سبيلنا ذاهبا إلى (حلوان). ووقفنا على مقربة من الشريط حتى تمر آخر عرباته. ومن إحدى نوافذها أطل وجـه حبيبين كانا واقفين فى النافذة ملتصقين والشـاب يقول للفتاة فـى أذنها كلمة. فتبادلنـا نظرة ونحن نعبر الشريط. وسألتها ثانيا عن صحة (ماما) لأننى لم أجد ما أقوله لها، فإذا بها تتنهد معلنة أنها جاءت إلى من أجل (ماما):

– أنا واثقة أن طلباتى ستقع من نفسك موقعا عزيزا.. هيه؟

وكنت فى هذه اللحظة أتسـاءل عما إذا كانت هذه بداية خطة؟؟ لكنه لم يسعنى إلا أن أجيبها:

– بغير شك.

– كان ممكنا أن أذهب إليك فى البيت لأرى خالتى أم فؤاد على الأقل... لكن... آه..

– لا تقطعى الحديث وتتأوهى.

فسألت برقة:

– لماذا لا تبدو هادئا كطبعك. ألا ينبغى أن نكون خيرا من أمهاتنا؟

ولم تدع فرصة لأعلق على كلامها بل استطردت وكأنها انفعلت من الموقف.

– إنهن لا يحسن المحافظة على الصداقة. كان عندنا مدرس يقول دائما: «إن الصداقة تحتاج إلى مهارة نادرة لصيانتها. وليست البراعة فى أن تخلقها لكن البراعة فى أن تستبقيها».

وأحسست أننى حمار.

كيف تستطيع مثل هذه الفتاة أن تقول مثل هذا الكلام؟ لابد أنها تستقيه من منابع لا أعرف أماكنها. هناك إذن للمعرفة مدارات جديدة غير الأمهات والمكاتب والزملاء والجرائد اليومية!

ثم همست فى قرارة نفسى: يا لها من زوجة!!

– وهل هذا وقته يا مغفل؟!

ندت هذه العبارة إلى أذننا فى برهة صمت خيمت علينا ونحن سائران – من فم ميكانيكى كان يرقد تحت سيارة ليصلح جوفها. وكان صوته مشحونا بالحنق فى الوقت الذى كان زميله فيه يقهقه فى الهواء الطلق. فقد كان يعابثه. ثم جددت (زينب) حديثها:

– إن أمى محتاجة إليك.

فأشرت إلى صدرى لأتأكد:

– أنا؟

– نعم. أنت.

فقلت فى نفسى:

– «وأمى كذلك!!».

ثم رفعت صوتى قائلا:

– تحت أمركم.

– بما أنك موظف فى الصحة ولك صلات بالمستشفيات فهى ترجو أن تنال معونتك لتدخل قسم الجراحة لأنها محتاجة إلى عملية بسيطة.

ومن انكسار إحدى عينيها وتخايل ابتسامة حذر على شفتيها فهمت أنه من الأنظف ألا تسمى العملية. ووعدتها بأن أمد إليها يدى. وكنا نضرب فى الشوارع كما فعلنا من قبل كأننا عشاق بلا مأوى.

ومنذ تلك الوهلة التى رأت فيها استعدادى لتقديم المعونة أحسست أنها أكثر التصاقا بى. والدنيا صيف. والظل فى بعض الشوارع كنز ضيق كأنه شريط. فكنا نجد أنفسنا مضطرين للتقارب.

لمست أردافها مرة بظهر كفى ثم لمست صدرها مرة بجنب ذراعى فأحسست بنشوة تحولت حالا إلى شعور بالحرمان ثم إلى حسرة غامضة كأنها بلا سبب. علقت بالنفس إلى مدى ساعة.

وفى فترة صمت ظللت مشينا سألتها عن أخيها. فلم تفعل سوى أنهـا رددت رأى أمها فيه. إنهـا تدعو عليه آنـاء الليل وأطراف النهار وتتمنى أن لو كنا كلنا بنات. مدين مسرف خائب وعما قليل ينقلب إلى سكير.

فتمنيـت أن لو سمعـت أمى هذا الـكلام. ثم هممـت أن أخبر (زينب) بما آل إليه حال (سميرة) لكننى وجدت حرجا فسكت.

وعادت الفتاة تقول:

– إن خالتـك (وتقصد أمها) قد تغيرت كثيرا. هل تذكر هدوءها ووداعتها يا فؤاد؟ كل هذا قد اسـتحال إلى نار. وفى أول كل شـهر تحسـب – مع المعاش – ما أخذته من الدنيا. ثم تعلن أنها لم تأخذ شيئا. وتدق كفا بكف وتدمع عيناها.

وكانت الفتاة تحكى بجد وحنان وسخرية فى وقت واحد كأنها ترى ألا داعى للسـخط وأن المسـتقبل ربما تحسـن. وخيل إلى أنها تقول بعينيها: وأنت من كنوز المستقبل.

وتطـور الحديث إلى خلاف نشـب بينها وبـين أمها أخيرا. إن أمها لم تعد تقبل نقاشـا فى شـىء. كانت قبل ذلك أهدأ من النسيم فقلبها المرض وسوء المعيشة إلى زوبعة.

– وهأنذا بعد تفكير طويل قررت أن أستنجد بك.

فأشرت إلى صدرى مرة أخرى لأتأكد:

– أنا؟...

فاستطردت وكأنها لم تسمع سؤالى:

– فكـرت أن أكتـب إليك ولكننـى فضلت أن ألقـاك... إن أمى تعذبنى يا فؤاد...

وأحسست فجأة أننى أمام غريق. وبدا زندها العارى على مقربة من ذراعى فأمسـكتها منه كأنى أخاف عليهـا أن تغوص فى الماء. وانصبغ الموقف – بطريقة مرسـومة – بصبغة شاعرية حنون حتى بدت شـفتها السـفلى فى متناول فمـى. وكان الكابوس يرابط على مقربـة من هذا المنام اللذيذ بتذكرى (حلوان) وكل ما فيها. وعرفت سـاعتئذ أن بعض النزوات الحيوانية قد يسـاعد على خلق المشاعر كما تسـاعد الموائد على إشاعة البهجة فى ليالى الفرح. وهمست لها بنبرة حب، وللمرة الأولى فى حياتى:

– زينب. احكى. لا تخافى!

وبدت المسألة أضخم مما كنت أتصور. قالت:

– كان لابـد أن أسـتنجد بك. يجب ألا ننسـى كبرياءنا إلا إذا تأكدنـا من كرم من نسـتغيث به. أمى تريـد أن تزوجنى لحيوان. لتاجر بقالة فى حينا مسـن قصير ضخـم كأنه برميل زيتون. تريد أمى أن تصفى المشـاكل بأسـرع ما يمكن، لأن خيبة أملها فى الولد لم تجعلها حريصـة على البنت. يكفيها همهـا وهم الولد الأخير الصغير الذى رأيته. على أنه يبدو أنه سـيكون ألعن من الذى فات. لقـد ضرب أحـد الغلمان بمدية فى كفه فى عـراك فى الحارة. وها

نحن أولاء فى حيص بيص. المهم فى الموضوع هو أننى أريد معيشة معينة. إن الأشياء التى تعجبنى غير الأشياء التى تعجب هؤلاء الناس. وأنا أقرأ وأسمع الموسيقى فى بيت إحدى صديقاتى القادرات وأستعير منها كتبا...

ثم سكتنا معا. وكان كل شىء من حولى يئز. عجلات الترام وصفارات الكمسارية ومحركات السيارات وحتى حفيف ملابس السيدات. فاستحالت الأصوات فى أذنى إلى صفير دائم.

وتذكرت الحقوق الطبيعية لكل قلب وأننى صاحب نصيب فيها. و(فهمى) المصدور، والمومس، والفرص التى تأتى قبل الأوان وبعد الأوان فقط. كأنها الطفلة المعصوبة العينين التى تبحث من الهدف فى اللعبة المشهورة. وتذكرت أننى قطعت نصف المرحلة برفقة أمى وأنه من العار أن أتركها وحدها. فربما أدركها الوهن فى منتصف الطريق.

قلت لزينب وأنا أفك ذراعها من يدى وكنا واقفين على مقربة من النافورة:

- دعينى أفكر.

فاستدركت كمن نسى شيئا:

- لا. لا تعالج الموضوع على أنه كارثة. أردت فقط أن أشرح عواطفى نحوك. على أن المهم هو أن تدبر سريرا لأمى فى أحد المستشفيات... سأعمل على رضاها ولو كلفنى ذلك عمرى. على أن رضاك عندى فى المنزلة الأولى. ثم قالت وعينيها فى عينى:

– وداعا!!

وتركتنى وسارت. ووقفت بعد برهة أنظر إلى الماء المنبثق من النافورة وهو يطعن الهواء كأنه سيف.

* * *

وفى بيتنا كان كل شىء قائما على قدم وساق. كانت أمى تريد أن تنفض يديها من غبار المعركة. ولم أحدثها عن شىء مما جرى مع «زينب». لم أكن صادقا معها فى يوم من الأيام، لأن الذين نخافهم لا يمكن أن نصدقهم القول. كنت دائما كمن يكلمها من وراء الباب. وذلك عمل غير صالح.

وفى البيت منجدون وقطن وزهريات وملابس وصينى. وكمبيالات ووصول. وحزب يمين وحزب شمال.

والخصام شبه دائم بين الفتاتين. الصغيرة ضعيفة الحيلة تسترضى أختها النافرة باستمرار. خصوصا فى الأيام التى كان العريس يزورنا فيها.

وفى أحد هذه الأيام رجعت من الخارج فوجدت عراكا حقيقيا بين أمى (وبدرية) وكان ذلك لسبب عادى لكن شهرتنا بحسن النية هى الشىء الوحيد الذى يخفف من أخطائنا عند الناس. ولم تكن بدرية معروفة بحسن النية.

كانت تنقل إحدى الزهريات التى تخص أختها فأفلتت منها وسقطت. كانت فى كفها بقايا إدام. فساعدها هذا على إتمام الحادثة.

ولم تذهــب (سميرة) لترى ما حــدث، وكانت أمى فى هذه اللحظة جالسة تحسب ما تبقى من طلبات وفى نفسها إحساس بالمسئولية. وأفاقت على صــوت التحطيم فلما رأت ما حدث لطمتها على خدها ففرت ترغى وتزبد واعتصمت بالحجرة العليا فى الســطح وصممت علــى ألا تنزل. وأودعت أمى حنقهــا وأحزانها فى حطام الزهرية فأخذت تتناول القطع الكبيرة منها ثم تعيد تحطيمها على البلاط.

وانقضى اليوم على أســوأ ما يكون وكان رشدى ينظر إلى وجوهنا ويتساءل عما إذا كان هناك شىء يزعجنا.

وظللت أنتظر عودة (زينب) لمدة أسبوع ولكنها لم تعد. وفى فترات هدوئى والســاعات التى تسبق النوم المشــحونة بالخيالات والأصوات المبهمة – كنت أستعيد حديثها كلمة كلمة وأحس نحوها بالشوق.

وقلت فى نفســى لماذا لا أذهب فأســأل عنها. ماذا يجرى لو فعلت هذا؟ هل تشنقنى أمى؟ إن (بدرية) نفسها تواجهها بشجاعة!! لكننى عدلت. قلت متحفظا: أليس من الجائز أن تكون هذه خطة حقيقية أن الموقف كان حلوا لم يحرم من كلمة مخلصة حنون لكننى خائف.

وفى يوم شديد القيظ رجعت أمى من الخارج وقت الظهر و(سميرة) برفقتها يحملان أشياء من مستلزمات الجهاز فى فترته النهائية.

ومر اليوم. وعدت وقت المســاء من العمل وجلســنا نتعشــى ولم تكن العروس معنا. وكانت (بدرية) تتحرك بطريقة تدل على أنها غاضبة.

ولما سألت عن (سميرة) أخبرتنى أمى فى هدوء وإطراق أنها متعبة. ونظرت أمى إلى (بدرية) بجانب عينها.

كانت (سميرة) تئز فى فراشها كأنها عارية وقت الشتاء. ووجهها الزاهى فى لون القرنفل والملابس عليها ساخنة الملمس.

سألتها فى لهفة:

– ماذا بك يا (سميرة).

– لا شىء يا أخى. برد خفيف.

– هل فعلت ما يستوجب ذلك؟

– دخلت الحمام.

ونمنا وأصبحنا. ورأيت على وجه أمى وقت الصباح قساوة من خاض معركة خسر فيها كثيرا. وأطالت صلاتها أكثر من العادة. وأفطرت وحدى وخرجت.

كان شىء ثقيل الجناح موحش الظل يرفرف على كل منظر خصوصا على بيتنا. وكف كأنها مخلب تقبض على قلبى.

ولم تكن الحال قد تحسنت وقت الظهر. ولم ألق نظرة على وجه (بدرية) حين وصلت. وأخذت القضايا أوضاعا ظالمة صارخة فى الظلم بين الأفراد الثلاثة فى البيت. وفى المساء استدعينا طبيبا:

– أوه... التهاب رئوى حاد.

– خطر؟!

– ليس دائما. ماذا فعلت الفتاة؟

– أخذت حماما عقب عودتها من الحر.

– اسهروا إلى جانبها.

ومن غير أن يصدر أوامر لم تذق عيوننا نوما. خيل إلى أنها تتسلل خارجة من البيت وأنها تبصق على الجهاز مع النظرة الأخيرة. وانتابنى إحساس حاد طارىء خارق فصعدت إلى السطوح. كان الدجاج يقرقر، وفى السماء قمر صغير. وزوجان من الأرانب يسريان تحت النور. ونظرت إلى الجبل والكهوف التى يخيم الظلام على أبوابها وأرسلت دمعة، من العين العزيزة الدمع.

وتحت... كانت أمى تتحسس ركبتها هى فقد شعرت هى الأخرى بالتعب. أما (بدرية) فلجأت إلى الفراش لأنها كانت شبه منبوذة. شيء لا يعلل!!

وفى اليوم التالى دخلت ظهرا على (سميرة) فرأيتها تبتسم من خلال الآلم ولم يكن شيء من التحسن قد طرأ على حالها.

قلت لها بحنان:

– سميرة!!

– نعم.

– قولى، ولو كلمة. أى كلمة!!

– اطلب.

– قولى.. قولى.. إنك بخير!

– حاضر!! (ولم تقل شيئا).

وبدت الأشـياء عنـد دخول الليل كأنها مسـتعدة لاسـتقبال حادث. ولم يكن يسـمع فى الضاحية إلا صفير القطارات المطوط. وخيل لى أن (سميرة) آخذة فى التسـلل خارجة كأنها أسيرة تريد العودة إلى وطنها.

وأيقظتنى أمى بنقرة واحدة على الباب وكان أحد الديوك ساعتئذ يعلـن بصياحه قرب الفجـر. فرأيت على وجههـا أمارات مريعة ذكرتنى بموت أبى.

فانفجرت أبكى مع أمى على القديم والجديد... آه! !

* * *

١١

وتركت لنا ثيابا وعطرا.. ومشت. وجمعت أمى أشياءها فى حجرة وأغلقت بابها. وكان حزنها يبدو فى عينيها كأنه ذهول. وأحس أهل (العريس) بخجل كأنهم جناة فلم نعد نرى أحدا منهم. وحملت (بدرية) شئون البيت فى صمت. ووقف الزمن كأنما ليأخذ مهلة.

وجاءت (زينب) صباح يوم إلى الإدارة لتسأل عما كلفتنى به فلما رأت هيئتى أنكرتنى. ثم عرفت الحادث فانصرفت دامعة العين. ثم رأيت فى ذلك المساء (فاطمة هانم) عندنا مطرقة بجانب أمى فى هيئة تبدو الأحزان بها شيئا كريها حقا.

وسهرت أسأل ذات ليلة عن مقدار رأس المال الذى تدفع أمى عنه هذه الضرائب. أى فترة من فترات عمرها كانت رغيدة؟ سمعت أنهم شقوا من أجل أن يكون لهم ولد، وأنهم لجأوا إلى الطب والتنجيم ونذروا النذور وقطعوا العهود. وهذه أمى لم يفرغ قلبها من المشاغل، كانت تخاف على الكتاكيت من الحدأة وها هى (سميرة) قد ماتت وهى عروس كأنها دجاجة خطفها ثعلب.

ولم أعد أحس بالنقمة على شىء. ليس من المروءة أن أترك مثل هذه المرأة وحدها. لقد أحرقت كفها شمعة العرس!! قالت لى

يوما: إنها ستكون بزواج (سميرة) قد قطعت نصف المرحلة. ذلك حسن. الموقف لم يتغير وإن كنا قد وصلنا من الباب الآخر. فبموت (سميرة) قطعنا نصف المرحلة أيضا. مسكينة!!

وها قد مضى على موت أبى ثمانى سنوات وأصبحت ابن ست وعشرين سنة. و(بدرية) فى الثالثة والعشرين. والأم قد جاوزت الخمسين. وأصبحت (مثل) أمى فى ثيابها الحقيقية بلا شفوف ولا مساحيق. فصممت على أن أرسم خطة وأن أربط نفسى بها. لا أمشى بعد اليوم بطريقة الصراصير التى تتلمس طريقها فى ذعر فلا تعرف البدء ولا النهاية.

وقلت لأمى ونحن نتسامر: إن حالتك الصحية تسوء. حافظى على نفسك من أجلنا فلا يجب أن تتركينا يا ماما. لابد أن تعرضى نفسك على طبيب.

وكنت آمل أن تفتح لى الباب فأرى ما بالداخل وأن تشركنى فى أى شىء، لكنها على الرغم من تأثرها بقولى لم تغير من خطتها معى. فوافقت على الذهاب للطبيب ولم تطلعنى على الخطة القادمة.

وأصيبت اقتصادياتنا بضربة. فقد استهلك الجهاز قوتنا. وحذف من المعاش نصيب (سميرة). وحرمنا نفسنا من الملذات. وكان الصاعد منا إلى السطح والنازل منه على السواء يتحسس بيديه أو بعينيه الصدع القائم فى ركن السلم. سيطلب منا فجأة وبلا انتظار ترميم، والصدع القديم لم يرمم بعد.

وأمى أيضا محتاجة إلى ترميم لأن الروماتزم سبب لها ورما فى ركبتيها وعند كعبيها. وهى مكلفة بالخروج فقد تعودت أن تشترى الأشياء بنفسها. ومنظر سيدة طويلة عجفاء فى ثياب سود تمشى وهى تعرج وعلى ملامحها عز وأمارة شىء يدعو إلى الرثاء.

وذهبت إلى طبيب مشهور فقرر شيئًا عجيبًا خضعنا له.

– اخلعى أسنانك كلها ياسيدتى..

– كلها؟! كلها؟! كلها؟!

– هل تشعرين بأنها سليمة؟

– لا.

– إذن فاخلعى أسنانك كلها.

– حاضر!!

لكنها أخرت ذلك ريثما تفرغ من شئ معين.

لم يكن أحد من أهل (العريس) يأتى إلينا كما تعلم. وأكبر كل من الطرفين قدسية الموقف فلم يتكلم أحدهم فى الماديات، فأضحى الجهاز فى بيتنا كطعام الوليمة الذى اعتذر عنه كل المدعوين. وكانت أمى تخرج وتعود وكأن على وجهها تجعيدة جديدة. أما (بدرية) فكانت تعانى بيننا موقفا حرجا فلم نكن نرضى عن تواضعها ولا كبريائها ولا طاعتها ولا عصيانها. تتهمها نظراتنا بالشماتة أو بالنفاق دائما دائما.

وفى ليلة الأربعين جاء فقيه يقرأ وعلقنا (كلوبا) على الباب من الخارج. وحشرج الفقيه وأز وقرأ عدة سور وذكر (حور العين) فتخيلت أختى بينهن. ماذا عسى أن يكن (حور العين) إلا الطيبة والحب والهدوء والسلام؟ وكل هؤلاء قد اجتمعن فى (سميرة).

وفضلت هذه الليلة بين فترة من الخيال والواقعية فقد صممت أمى – على ما بدا – أن تنتهى من الموضوع. واتكأت على ذراعى وخرجنا فى الصباح. وكان لونها كابيا وكأنما لوحته الشمس. عواملنا الداخلية تغير ملامحنا؟؟ سبحان الله ! !

وكان (رشدى) قد سكن فى المدينة فذهبت أمى إليهم. وكنت أتصفح الوجوه وأنا جالس معها فى القطار. خيل إلى أننى رأيت أثر النمو فى كل شىء كأننى غبت عن الدنيا وعدت: هذه الفتاة لم يكن لها نهدان وها هى تنظر إليهما فى حياء. كبرت! وهذا الغلام قد حلق ذقنه وقد كنت أرى على خديه الزغب. كبر! والكمسارى محنى الظهر لأنه طويل ولم يكن كذلك. كبر! وبدت لى نخلة من الشباك بين نخيل جزوا جريده فتذكرت أن بلحه منذ سنوات كان فى متناول اليد. أما اليوم فلا بد من الصعود. كبر! ! وأمى... كبرت! مُلئ وجهها تجاعيد. وقد قالت لى منذ ليال: إنها لم تصنع شيئًا. كأنها صاحبة رأس مال لا ينتج. وصفقت بكفيها.

أنا وهى واقفان على الطريق والناس يسيرون. لها معاش من الخزانة ولى مرتب من نفس الخزانة. تمشى علاواتى ببطء مخيف

وعمرى يثب بسـرعة ولا بد أننى كـبرت مثل هذا الغلام وتلك البنت والكمسارى والنخلة. ذلك طبيعى لكننى أراه فى نفسى.

وودعتها عند آخر الخط ودعوت لها بالتوفيق:

– مع ألف سلامة.

وأحس بعض الواقفين بحرارة الدعوة والتفتت إلى سيدة مسنة وفى عينيها حنان. وصرفت وجهى عن الناس ومشت أمى تجر ساقيها.

وفى ذلك اليوم كنت أحسـب الحسبة فى الإدارة أربع مرات أو خمس مرات. إن الحياة فى ذاتها قسوة لأنها مذعورة من الموت وإن لم نشعر بذلك فكيف إذا تسلحت بالقسوة؟!

وعنـد الظهـر كانـت أمى تأكل بلا شـهية وتشـكو من الهضم وتتحسس مفاصلها وتنظر إلى الصدع فى الحائط وإلى الصورة الصغيرة لسميرة تلك التى دقتها بيدها قبل أن تموت:

– لماذا لا تشـتكين لى يا ماما؟... خففـى الغطاء عن الوعاء الذى يغلى!!

قلتها فجأة وبحنق فجاءت كلماتى كأنها شكوى. عندئذ تململت فى مقعدها وقالت وهى تعود إلى تماسكها:

– يكفيك ما أنت فيه... بعد مرور هذه الفترة سـيصبح كل شىء طيبا. على شرط آ...

وظننت أن ذلك متعلق بى فاستوضحتها بإلحاح فاستطردت:

– على شرط ألا تقلع سفينتى فى وقت مبكر... ألا أموت.

* * *

واستيقظت فى فراشى بعد الغداء لأننى سأعود إلى العمل فى المساء وقمت من النوم والطعام فى بطنى كأنه حجر. ثم ركبت القطار وفطنت وأنا جالس حين رأيت خيالى فى زجاج الشباك أننى لم أسرح شعرى وكانت العيون تأخذ ناصيتى المنكوشة بشىء من الفضول لكن وسامتى غطت على الفوضى.

ورأيت ظهر فتاة خارجة من الإدارة حين وصلت إليها وأدركت أنها (زينب). هل جاءت لتسأل؟ وأعرضت عنها وعبرت العتبة لكننى وجدت نفسى مدفوعا وراءها وجريت فى نفس الاتجاه القديم إلى (لاظوغلى) وقبل أن تعبر هى شريط السكة الحديد دق جرس الإنذار بمرور القطارات فوقفت وأدركتها.

كل شىء فى الحياة كان ذابلا فى هذه الفترة حتى (زينب) تحت أذنيها وعلى وجهها الشاحب بقعتان حمراوان كأنهما صفعتان من كف غليظة، وشفتها السفلى متشققة بحيث خيل إلى أن من واجبى أن أنديها. وأمسكتها من زندها بلا تردد. كأننا فى آلامنا نكون أشد اندفاعا وأقل فى التحفظ وبدا فى عينيها شبه دموع ولم تقل شيئًا حتى انقضت جلبة القطار. وعبرنا وسرنا كأننا عشاق بلا مأوى وخيل إلى أن الشىء الوحيد الذى ينبغى أن يقال هو:

– تعالى... نذهب إلى أى مكان... نصنع أى شىء... بل كل شىء. نأكل تفاحة واحدة لأول مرة ولآخر مرة على مائدة حياتنا التى لا تحمل إلا الخبز والمخلل!!

لكنها تكلمت فقالت شيئًا آخر:

– فؤاد... جئت إليك!!..أ...

قلت مستعجلا وبشوق:

– أنا أعلم أنك جئت إلى. قولى.

– إن أمى. آه...

– لا تتأوهى. اتركى هذه العادة.

– أمى فى حالة إعياء شديد. تصور أنها تنزف منذ ليلتين؟

– لماذا لم ترجعى إلى؟

– ليحاول كل واحد أن يحمل هم نفسه.

كأنك لا تشعرين أن المتعبين أقرب إلى مساعدة أمثالهم... الناقهون فى المستشفى يخدمون المرضى!

فنظرت إلى.

وكانت عيناها متعبتين لكن نفسها قوية. وعلامات كأنها من أرق الحب عند زاويتى شفتيها. وهممت مرة أخرى أن أقول لها «تعالى... نصنع أى شىء» لكن واقع حياتنا ينصب على رءوسنا فجأة إن غفلنا عنه كأنه ماء بارد.

– سأجهز لها سريرا. هكذا تفعل البواسير. هل صحتها العامة حسنة؟

– نوعا. لكن...

– ماذا؟!

– لماذا يتركنا آباؤنا للمتاعب؟!

وسمعت من فمها لأول مرة منطق المرأة المغلوبة. وثارت فى لأول مرة نخوة الرجل القادر وقلت لها فى حماسة:

– لا تقولى هذا. إن الدنيا لم تخل من الرجال.

فأطرقت هى أما أنا فتذكرت أمى وأين هى الآن. وموقفى من البيت فكفكفت بنفسى حماسة نفسى.

وتواعدنا أن نلتقى بعد يومين لتدخل أمها المستشفى. وفى الإدارة كان هرج ومرج جديدان يصدران من الموظفين فقد أعلن (فهمى) أنه سيتزوج وأن مساعى جدية تبذل لنقله إلى وظيفة أكثر احتراما. وعما.

قليل سيترك وظيفة (٥ × ٦ و٧ × ٨) إهدار للعقل وخنق لنور المعرفة كما يقول. وجعلوا يصخبون: «يا بختك يا عم».

أما أنا فكنت مشغولا عنهم بشغلى. وكثيرا ما نادونى فلم أرد فتركونى فى معزلى فى سكون.

وقررت فى المساء أن أدخل على أمى فى عزلتها ولكنها ردتنى بمهارة ولطف ونحتنى باسم الحنان على صميم المشكلة قائلة إنها لم تصل فيها إلى مرحلة حاسمة وقد يكون من المحزن لى أن أعرف تفاصيلها.

وفى اليوم التالى رأيتنى فى البيت وحدى. وكانت أمى و (بدرية) فى الخارج لبعض الشئون. وطفت بالحديقة وصعدت إلى السطح وجلست فى كل مكان حتى دورة المياه. وتوقفت عند الصدع فى ركن السلم ووضعت فيه أربع أصابع وجررت نفسى حتى وقفت

فى الصالــة كأننى لا أجد مكانا أذهب إليــه. ونظرت إلى الحجرة المقفلة على حاجات (سميرة) وكان الظلام مطلا من خصاص بابها. وأحســت أن شــيئًا فى داخلها يناديني وكأننى ســألقى العروس فيها مطوية على كرســى من الكراســى. لكن المفتاح كان مع أمى. إحساســات لا تعلل كالتى حكوها عن القصور الخرافية ذات السبع حجرات والســبعة أبواب وكل شىء فيها مكون من سبعة، وكانت الحجرة السابعة محظورة الفتح دائما. والبطل الخرافى كان يفتحها دائما لتبدأ المتاعب...

وتبســمت. وذهبت إلى حجرتى وخلعت مفتاحها. وبعد علاج قصير انفتح الباب عن الظلام والوحشــة. وأشعلت مصباح النور فلم يشــتعل لأن أســلاكه تالفة. وخفت الظلمة حين ألفتها فرأيت كل شــىء مكدســا. واتجهت نحو صوان الملابس فألقيت نظرة على ما فيه فإذا الفساتين معلقة على الشماعات تفوح منها رائحة (سميرة) فرجعت تاركا آثار أقدامى على الأرض وجريت نحو الهواء.

وتلقانى الكلب فى الحديقة بعين آذتها ذبابة فســالت دموعها. فربت على ظهره وفتحت الصنبور لأروى النبات الحى.

إن أمى معذورة. إن (سميرة) مشت فى وقت غير مناسب.. وأدركت بعدئذ أن الطرفين مختلفان على الجهاز. ولكى يتزوج العريس ينبغى أن يأخذ نقودا. ولكى لا نخســر نحن ينبغى أن نتخلص من الجهاز ونحن مدينون لكل من يجهزون العرايس وهذه المشكلة.

وفــى الوقت الذى كنا فيه نودع (فهمى) ونبادله القبلات داعين له برحلة طيبة فى شــهل العســل – كان (عم سيد) يقول لى بنبرة هامسة ووجهه يحمل سرا:

– فؤاد أفندى... كلم.

وكانت (زينب) بانتظارى. وكان كلانا يحس أن الحياة فارغة أو متوقفة بالنســبة إليه. وشكت لى أول ما قابلتنى أن أمها تلاقى فى المستشفى إهمالا. فاستمهلتها حتى المساء ثم التقينا هناك. وبذلت ما فى اســتطاعتى لأوصى عليها. وظلت المريضة تثرثر بذكرياتها عــن علاقتها بأمى وتلقى إلى بنظرات ملؤها الأمل ولعل فيها حبا. أما الحياة فى بيتنا فكانت على النحو الذى تعلمه غير أنى كنت قد وصلت إلى حالة مشبعة بالملل وأريد أن أمد يدى فأغير أى شىء.

ولما خرجنا أنا وزينب كان الليل قد هبط منذ ساعة. واقترب كل منا من الآخر ونحن نعبر حديقة المستشفى فى طريقنا إلى الباب. وبدأت رائحة الزهر والندى والعشــب والليل تشــغل مكان روائح العقاقير وهتفت زينب باسمى ويدها تلتمس طريقها إلى يدى. فلما تلاقت أكفنا تطابقت كما تفعل الكماشة. ودقت ساعة البرج فى هذه اللحظة فكأنما دقت مائة!! لا أدرى!! شــعرت أننى ســكران وأن شيئا ضخما فى الحياة لا يزال ينقصنى.

وأصــررت علــى أن أوصلها إلــى بيتها. ولم أكلمهــا ونحن فى الترام. وكانت نظراتها المشــفوعة دائما بابتسام تعدنى. حتى إذا

ما وصلنا إلـى الحارة بدأت فرصة النكوص لكننى تشـجعت حين أغرتنى بفنجال من الشاى:

– ألا تريد أن تشـرب «شـاينا»؟ من المحتمل أن يكون أخى قد وصل!!

وكنت فى قرارة نفسـى ثائـرا على الدنيا كلها. أرى السـعادة فـى أن أخطف (زينب) وأطير بها إلى أى مـكان. وفتح لنا أخوها الصغير وكان وحده فى المسـكن كأنه جن. وطالبها بالعشاء وتركنا ونزل ليشـترى حلاوة وجبنا وخبزا من الفرن الجديد هناك بعيدا عن الناصية!! ولما اسـتأذنتنى بلهجة لينة أن تذهب إلى الحجرة الأخرى لتخلع ثيابها وجدتنى – وقد فرحت بنفسى بعدئذ – أمسك معصمها وأقول لها بلهجة ذليلة:

– لا تتركينى!!

فتأوهت وأقبلت على وقد بدا التسليم على أجفانها المكسورة:

– أنا؟!... لا أريد أن أتركك أبدا!!..

وتهاوينا على الكنبة. وغابت الصور التى كانت تزعجنى فلم أتذكـر أحدا حتـى ولا أمى رأيت (زينب) على ذراعى كوسـادة مـن الريش أسـتطيع أن أثنيها فى أى اتجاه كما يشـرب الطائر الخائف حتـى أيقظنا جرس الباب. وحـين كان الجنى الصغير ذو العينـين القلقتين يتناول عشـاءه على مـرأى منا كنا نهمس بالحديث قالت:

– هل ســببت لــك متاعب؟ إن جرس العفريت جــاء فى الوقت المناســب... ما لنا كنا هكذا؟! ســكارى.. أنا شخصيا كنت سعيدة. وأنت؟

فقلت شاردا:

– لا أعلم كنت فى حلم لا أكثر ولا أقل!

فقالت ضاحكة:

– صح النوم!!

وأمسكت نفســى أن أقول لها: تعالى نهرب إلى أرض ليس فيها سوانا. بعيدا عن كل الناس. لكننى تذكرت أن فى (حلوان) امرأتين تنتظران عودتى بلا عشاء. وأن كلا منهما قد أوت إلى فراشها بأحلام لم تتحقق بعد. فتنهدت وتنهدت بعدى (زينب).

* * *

١٢

وأعلنت أمى بعد ذلك بأسبوع أن الأزمة قد انتهت تماما... فسألت بسذاجة وفرحة كانتا سببا فى أن نظرت إلى فى شىء من اللوم:

– انتهت؟!.. يا سلام!!.. ما الذى حدث يا ماما؟

– كل خير. سنوات المتاعب بدأت تغور. منذ موت أبيك وأنا أعانى قلقا عليكم. ألست معى؟... من غير شك!! وكان موت (سميرة) حادثا غير مريح. رحمها الله. ارتاحت من الدنيا.. لو أنها لم تترك جهازا ما تفاقمت المشكلة. أنا مديونة لكل الناس يا فؤاد وكانوا يريدون أن يأخذوا مهرهم. تصور!!.. وأبقى بعد ذلك أدفع أقساطا أو أرد ما أشتريه بثمن يخرب البيوت. ونحن لا نحتمل هزة (ثم صمتت).. لا يزال أمامنا شوط طويل. البيت يريد ترميم وأمك تريد ترميما.. وأنت؟! أنت تريد أن تتزوج. وأغمضت عينيها كأنها تحلم وأطرقت أنا نحو الأرض حتى لا ترى ما فى عينى. وظلت – وعلى وجهها شبه دعابة – متربصة بى تريد أن ترى أثر قولها فى ملامحى فلما لم أنظر إليها رفعت جبينى بإصبعين وهى تبتسم، فابتسمت لها. وقالت:

– لعلك تقول الآن: مالى ومال هذه المتاعب؟

– لا.

– كل شيء سيسير سيرا حسنا بإذن الله. بدأت أتفاءل. أحلامى تبشر بأن سنوات الهموم بدأت تغور. لا تحزن. فقد أخذت أرضنا تخضر. عاونى ولا تقلق. بعض الناس يغرقون بالقرب من الشاطئ وكثيرا ما يجعلون آخر شوط فى العمل أسوأ شوط فيه. أتفهمنى يا بنى؟!

– نعم أفهم.

– سيتزوج رشدى من بدرية. وستلبس العروسة ملابس العروسة. ليس هناك مفر. غير أننى أدعو الله أن تتخلى عن رعونتها حتى لا يضجر منها لأنها (شعنونة).

– زوديها بدعائك.

فابتسمت. ومدت يدها فتحسست شعرى.«عندما ترتاح أمى من متاعب الدنيا. ويخف لهثها تكون أطيب من النسيم. ظروفنا تغير أخلاقنا».

قلت ذلك فى نفسى وأمنت عليه وتذكرت أحد زملائى حين يكون أرعن التصرفات سليط اللسان عندما يخلو جيبه من السجاير... تمام تمام. نقص مطلب قد يغير اتجاهنا الفكرى. ثم شهقت كمن سقط فى الماء وسألت نفسى:

– إذن فما الذى يحدث لإنسان ينقصه الحب؟؟

ووقفت عند هذه القضية وتذكرت أننى مسكين يحز الحرمان فى إحساسى كأنه مبرد يأكل شيئًا هشا. أنسى نفسى على محطة

السكة الحديد أو غيرها بالثلث ساعة لأراقب أرداف النساء حين تبتلع الثوب الخفيف من هبة الهواء. أو أرسل نظرتى متسللة من فتحة الصدر لأرى الخندق الأبيض. وخيالات الجنس مشوبة بالخزعبلات دائما.

تذكرت (زينب) جيدا وأمى تحكى عن كل شىء وتعلن انتهاء المشكلة بوجه زالت عنه التجعدات كأنه دهن بالحيوية. حتى نظرتها كانت أكثر تألقا ووجهها أعمق سعادة. وكدت أبوح لها بمكنونى. فقد تخيلت أن أى شئ فى الدنيا لا يستطيع إغضابها الآن، لكننى أمسكت من باب الاحتياط.

واختفت صورة (سميرة) من على الحيطان. ودخلت إلى علبة فى جريدة قديمة فى ركن من الدولاب فى الحجرة التى فوق السطوح والتى تحتوى على ذكريات أبى.

أما بدرية فقد بدت وارثا بغيضا لأنها كانت متهمة فى حياة الموروث. وكرهتها فى نفسى حتى كأننى ضبطتها تخلع خاتم الخطبة من يد أختها المسجاة لتلبسه فى صمت!! ربما كان ذلك لأننى كنت أحب الصغيرة... فأنا أحب الهدوء وسكون الطبع ولعل (زينب) قد استأثرت بانتباهى لأنها تبدو دائما كالمحتاجة إلى، أنا الضعيف لكننى أحب التى تستند على ذراعى.

وانغسل التراب عن البيت وانفتحت الحجرات فلم يبق هناك شىء مغلق. وكانت بدرية فى الصباح خادمة مخلصة وبعد الظهر

عروسا نظيفة. قلت فى نفسى: عجيبة. فى هذه الفتاة مواهب. إنها تحكم كفها تماما على الشبكة ولن يفلت منها الصيد. ودعى العريس للعشاء عندنا لأول مرة بعد الحادث المؤسف.

ورأيت أمى تذبح دجاجا وتطبخ كشكا كما كانت تفعل أيام زمان! وجلست بدرية على المائدة إلى جانب رشدى. ولم أطق المنظر أول الأمر. ثم أطقته كما تألف الشكل المشوه مع مرور الوقت. وكانت أمى تبدو سعيدة. أما رشدى فمن حسن حظ بدرية أنه من ناس يأكلون أى شىء، ويلبسون أى شىء، ويرقدون فى أى مكان وإن أبدى شيئًا من المقاومة.

ومن الغريب أنه أصبح يزور بيتنا أكثر مما كان يزوره قديما. أيام العروس الجميلة الواقفة فى صف «بنات الحور». وكتمت أمى سعادة وإعجابا. واستنبطت أنا أن القدرة على التملك فن يوهب، سره غامض ولا تكشفه إلا الظروف.

على أن هناك شيئًا قد تعجب منه حين تحسه منى. هو أن اقترابى من أمى كان يزداد كلما هبت الريح رخاء على الأسرة. وكلما زاد قربى من أمى زاد بالتالى بعدى عن (زينب). فأنا لا أستطيع أن أرتبط بها حتى ولو بكلمة ولا أجرؤ على مفاتحة أمى فى أمر زواجى فى الفترة التى رقدت فيها على بيتنا تلك السحابة السوداء. أما إذا كانت الأمور على غير ما يرام فى بيتنا

فقــد كنت أدنو من زينب دنو الذين يحملون معهم عذرا واضحا فى عدم الارتباط بامرأة.

لذلــك كنت فاتــرا إلى حد ما حين طلبتنــى (زينب) فى الإدارة وخلقت عذرا لطلبى يومذاك:

– منــذ ترقينــا. فى الليلــة المعهودة لم أسمع عنــك خبرا. لقد انصرفت سعيدا ليلتئذ أليس ككذلك؟ فهل جد جديد؟

– لم يجد جديد.

– كثير من الأشــياء لا يعطى أثرا عكســيا إلا بعد وقوعه بمدة. يعنى بعدما يكشف الناس له دوافع جديدة...

فقلت بغلظة:

– لست فاهما.

– ليس ذلك ضروريا. الضرورى أن أعلم ما إذا كنت سعيدا؟

– الحمد لله!!

– لا يبدو ذلك فى عينيك. آه...

– عدنا للتأوه؟!

– كل شــىء فــى حياتى يبعث علــى البــكاء. إن الموضوع الذى حدثتك عنه بدأ يتجدد.

قلت متجاهلا بجهامة وبلادة:

– أى موضوع؟

فنظرت فى تشكك وقالت بأسف:

– نسيت؟!.. أنت من الذين ينسون ما يعجبهم؟! إذن... فهو... موضوع البقال.

وكنا عبرنا الشـريط فى نفس الاتجاه. نحـو ميدان (لاظوغلى) وقطار ذاهب إلى (حلوان) يطلق صفيرا طويل النفس مسـتعجلا فى سيره. وفى قلبى فى هذه اللحظة فرحة انتصار بما ظفرنا به. وميل إلى التريث حتى بدا لى أن هذه الفتاة ليست (فرصة) وستلد الأمهات وسـيظللن قلقات على زواج بناتهن كما فعلت أمى وكما تفعل أمها وكما سـتفعل زوجتى. لا داعى للعجلة. إنهـا تضيق على الخناق. حقيقة لقد تقابلنا... لكن... أنا لا أملك الآن خطة واضحة.

ووجدتنـى أضحك. فنظرت إلى باسـتغراب وشـحوب لأنها لم تعهدنى كذلك:

– هـل هناك ما يدعو إلى الضحـك؟ أذلك لأنى أفضلك على رجل آخر؟ الفرق بينى وبينك هو أن أحدنا أخذ الأمر جدا والثانى أخذه هزلا. هذه هى المسألة.

وحاولت أن أفسر لها موقفى ولكن ذلك لم يكن ناجحا. لأن الفتاة حين تعطى يصير إحساسـها أكثر رهافة: خصوصا عندما تكتشف أن هذا الرجل لم يكن يستحق.

وافترقنا.

وبدا لى أن حرمانى موعـود وموقوت فأصبحت أحتمله. وخطت سـنى إلى السابعة والعشـرين. وأسـرعت أمى فى إعداد كل شىء.

ولبس رشـدى سحنة المحبين فقد لعبت به بدرية. صعدت مرة إلى السـطح فرأيته معها عند حظيرة الدجـاج يقدم بيديه فتات الخبز للأرانب: ورأيته مرة يسقيها وهى فى الفراش.

وسعدت أمى (بنظام الحكم) وأيقنت أنها ستموت مرتاحة البال.

ولما عاد (فهمى) زميلنا فى المكتب من شـهر العسـل كنت ضمن الذيـن لا يناصرون قضية الزواج الباكر. كان شـاحبا كأنه منزوف يقذفه أكبر الموظفين سنا بالكلمة تلو الكلمة كأنه يرميه بالمقلاع.

ونحن نحس بشماتة خفية وبالتالى بنصر مبهم حين نرى إخفاق الذين يسبقوننا إلى شىء كنا نتمناه ولم نحصل عليه، لذلك شاركت بلسانى ضد (فهمى) حتى استرعى ذلك انتباه من حولى.

على أن مقامه عندنا لم يطل وصحته لم تتقدم. وانتقل إلى الصعيد ليعيش فـى الجو الجاف. وغابت عنا أخبـاره وحل محله موظف آخر وهكذا بدأت الأشياء تتغير...

وأجمل ما فى تغيرها أن بدرية زفت إلى زوجها فى إجازة نصف السنة وقد شعرت – أنا وأمى – أننا اثنان فقط عند عودتنا من بيت العـروس. وانفجرت أمى باكية وهى تعـبر الصالة، أما أنا فقد دق قلبى لأننى تذكرت – وعينى إلى الصدع القائم فى ركن السـلم – أنه كان فى بيتنا منذ عام واحد فتاتان ناضجتان ذهبت كل واحدة منهما إلى موضع وأن هناك مطالب لا تزال قائمة... كلها ترميم وإصلاح.

وأوينا إلى فراشنا متعبين كل فى حجرة يفصل بيننا جدار. ونام

البيت وكأنه لا يتنفس. حتى الكلب لم ينبح فى هذه الليلة. وكنت أفكر فى غير ما تفكر فيه أمى. كانت هى مشغولة بما يجرى تحت المصباح الأحمر فى بيت بنتها، أما أنا فكنت مشغولا بمسألة بدأت عويصة:

– «مـا الذى أحـزن عليه لو أننى خرجت من هـذه الحياة. وما الذى تحزن عليه أمى لو خرجت منها؟!».

ولم أجد سـوى أننى لم أتزوج... فانتقل فكرى إلى أشياء أخرى فى مقدمتها زينب:

– أليس من الجائز أن يكون مقسوما لى ولها أن تبدأ حياتنا بليلة مثل هذه التى بدأت بها حياة رشدى وبدرية... آه... إن عالم المرأة شىء خطير. ترى ما تفاصيله؟!».

وتذكرت شـقا كبيرا فاغرا فمه يقوم فى ركن السلم... عندنا فى البيـت... وأمى المتهدمـة ذات الركب المتورمـة والمفاصل الملتهبة والأسنان التى أمرت بخلعها:

– «يغذوننـا بلبنهم أول العمر، يطعموننا صحتهم فى أواسـطه وعندما يضعفون.. ماذا؟!.. ربما اعتبرناهم أعباء!!».

واسـتغرقت فى النـوم وفى الصباح كانت أمـى تصلى وبدا على وجهها أنها لم تنم. وكان اليوم يوم جمعة، فانتظرنا حتى الضحى وركبنـا إلى العاصمة وكنت مشـوقا إلى أن أرى وجه اثنين تركناهم بعد منتصف الليل البارحة فقط وخيل إلى أننى حين ألقاهم سـألقى

فيهم ناسا لم أرهم من قبل..

لم يكونا قد نهضا بعد من الفراش حين وصلنا فى الساعة العاشرة... وجلسنا حيث تجلس أم رشدى حين خرج علينا العروسان.

ولم أحاول أن أفحص شيئا طوال خمسة عشر يوما منذ تلك اللحظة كل ما فى الأمر أن أمى كانت دائمة الحزن وأنها كانت تفضل أن تذهب وحدها دون أن تستصحبنى معها. ورجعت إلى عادتى التى عودتها لى، ألا أكشف الغطاء عن إناء مادامت قد حجبته عنى. حتى دخلت عليها ذات مساء فألفيتها تسرح شعرها بعد الاستحمام على وجهها ابتسامة بيضاء وثوبها الداكن قصير الكم تبدو منه ذراعها البيضاء. وهممت أن أسألها عن سر السعادة الطارئة، لكنها قالت بإيجاز وهى تتناول المنديل لتعصب رأسها:

– منذ ليلة أمس وكل شىء فى بيت بدرية على ما يرام.

ونظرت نحو حجرتها بخجل وشرعت تربط المنديل بإصبعين فهززت رأسى مؤمنا وأنا أقول فى نفسى: «أم البنات، حبلى حتى الممات» هكذا قالت الأمهات من قديم..

غير أنى نهضت وفى نفسى سؤال عن العريس ظل عالقا إلى أمد طويل:– «هل كان رشدى شابا مستقيما قبل الزواج؟ أعتقد ذلك طيب... وأنا؟!».

* * *

١٣

وتغيرت أمى كثيرا بعد زواج بدرية. صرت أشعر معها وكأننا حبيبان. أصبحت أكثر رقة وأوفر حبا وغيرة مما كانت من قبل. وأجمل ما فى حياتنا الآن ليالى سمرنا. فقد استعدت كثيرا من خصال الطفولة وأصبح يسعدها أننى عدت طفلا. لا يسعد الأم أكثر من تعلق ابنها بها، خصوصا إذا عاشا وجها لوجه...

كانت غرفنا متجاورة وكنا نتناول العشاء – غالبا – فى غرفتها وعلى الكنبة المتاخمة لفراشها تجلس هى وأنام ورأسى على فخذها. وعينى إلى وجهها وهى مطرقة تحكى. وكنت أتخيل أن ابتسامتها تسقط على وجهى كأوراق الورد. وهى دائما تعبث بشعرى. وتثير من ذكريات طفولتها وحبها وزواجها ما رفع الكلفة بيننا. وكنت أنسلخ عن حديثها برهة لأسأل نفسى: لماذا لم تكن أمى فيما مضى لطيفة معى إلى هذا الحد؟! وأعود فأندمج فى التيار. ويحملنا الحديث من التسلية والترفيه إلى الجد المرير أحيانا فنتكلم عن المعيشة وتكاليفها وعن مستقبل مرتبى وكيف يتسنى لى أن أعيش به مع زوجة وأولاد. وتفترض أمى وهى تحدق فى وجهى جيدا أننى رزقت بزوجة متلاف مفتوحة الكف كثيرة الذرية فماذا يكون حالى؟

– كل فم وله رزق يا ماما فلا تزعجى نفسك.

– لــو أن هذا البيــت كان لك وحدك لخفــف المتاعب. إن أختك شريكة فيه وهى فتاة طماعة. لكن...

ويتوقــف الحديث. وأقــوم فأجهز لها الدواء الــذى تأخذه قبل النــوم وأقف حتى ترقد فى فراشــها. فأحكم عليها الغطاء والنوافذ إذا كان الوقت شتاء وأبعد المدفأة عن طريقها إلى الباب ثم أقبل يدها أو جبينها وأطفىء النور فى مخدعها وأذهب إلى حجرتى.

ونتنــاول الطعام فى الصباح معا ونشــرب القهوة. وخيل إلى مع مرور الزمن استتباب الأمر واتحاد النغمة فى وجودنا أننا كنا هكذا منذ (آدم) وأنها ستظل هكذا حتى القيامة.

ويدخل الشــهر فآخذ نفقتى الشــخصية كطبعى منذ أحد عشــر عامًا، وأعطيها الباقى. وتصرف هى معاشــها ثم تتولى دفع الديون وإطعام الأسرة.

وفى ليلة من ليالى الشتاء طال سمرنا. ونبح الكلب فخرجت أنظر فلم أجد شــيئًا وحين عدت مسحت الطمأنينة معنى القلق من عينى أمى وكانت تعد على أصابعها مرات الاستغفار التى استغرقت فيها بعد ما ذهبت أجوس خلال البيت. فلما اضطجعت إلى جوارها ثانيا فى السرير ربتت على كتفى تدعونى أن أذهب إلى النوم وتدعو لى.

– بدرى يا ماما.

– بدرى من عمرك. اذهب ونم. فى المســتقبل ستأوى إلى فراشك باكرا دائما. وباكرا أكثر من اللزوم.

ولم أفهم:

– لماذا يا ماما؟

– عندمـا يكون فى مخادع الأبناء نسـاء لا يطيلون السـهر مع أمهاتهم!!

قلت مهونا:

– أوه... لا تفكرى فى هذا لا يزال أمامنا شوط طويل.

– أريـد أن أعيش حتى أرى زوجتك. ثـق أنه لن يحزننى ذلك ولن أدافع إلا عن حقى المشـروع فى قلب الابن. لن أحاول أن أستأثر بحق غيرى أبدا.

وتكلمت أمى بحرارة كأننى سـأزف بعـد أيام. فعزوت هذا إلى قلق ما، وقبلتها فى جبينها وتنهدت وأنا أقفل عليها الباب.

إن فكـرة أن نمـوت ونحن لا نملك شـيئًا فكـرة مخيفة إحدى صورهـا كانت تناوش قلب أمى فى وحدتها وأحلامها، حين كانت تتخيل أن امرأة ستسـتأثر بى. وقد يدخل عليها الموت فى الحجرة المظلمـة ذات ليلة وأنا أناغى فى حجرتى امرأة أخرى. وأظن أنه لو كان لها ابن أو اثنان غيرى يعيشـون معها فى البيت المحتاج الآن إلى ترميم لتغير الموقف.

كنا نأخذ أنفاسـنا بارتياح نوعى، ولـو أننا كنا مثقلين بالديون فى سـبيل الجهاز، كنا كالجائع المرح يسد رمقه ويغنى. نأخذ من الحديقة خضرا وفاكهة ونشـترى من السوق خبزا ولحما. أشبه ما نكون بالغنى الذى لم تفن بعد ملابس عزه. وزمام نفسـى وقلبى فى

يــد أمى وأخبار زينب منقطعة عنى. وأخبار أمها منقطعة عن أمى. والحياة كأنها حذر والإحساس كأنه بداية سكر!!..

ونعمنا بهذه الفترة عاما استيقظنا بعده على طرقة:

– من؟

– خطاب مسجل.

– من الذى أرسله؟

– زيد بن عبيد أو فلان بن علان صاحب البيت الذى يقع بابه فى الشــارع الموازى لشارعنا ويستند ظهر بيته إلى ظهر بيتنا، يخبرنا أو ينذرنا أنه ســيهدم بيته ليبنيه عمــارة كبيرة، وعلينا أن نتحذ الاحتياطات لبيتنا حتى لا ندعى عليه فى المستقبل بشىء.

وأســندت أمى ذقنها على قبضة يدها ثم رفعتها وعضت إصبعها السبابة:

– تفسر المنام!!

– أى منام؟

– رأيتنى جالســة فى الليل وراء ســتارة فيها خرق واحد أخيط عليه رقعة. وكنت كلما ســددت الخرق بدا علــى مقربة منه خرق جديد والإبرة فى يدى وعينى متعبة...

– لا تنزعجى. تمشى كما تمشى. لا ينبغى أن نموت!!

فنظرت إلى فى رثاء وكأنها تتوجس شرا. وفى هذه الليلة جهزت لى عشاء سخيا وجلست تطعمنى بحرص وإصرار كأننى مسافر وهى

خائفة على من الجوع. وكنت أحدثها طويلا وهى شاردة حتى بدوت أكثر ثرثرة وبدت أكثر صمتا.

ولم تجد الاحتياطات التى اتخذناها بالنسبة إلى البيت. فقد تفاقم الصدع. وألفينا نفسنا مضطرين إلى أن نبيع أو نهدم أو نبنى أو نرمم وأغلقت الأبواب فى وجه أمى خصوصا لأنها كانت قد استهلكت قواها ومدخرها فى تجهيز بدرية فرأيت حتما أن أعرض خدماتى لأنقذ الموقف.

– نستدين بفائدة وعلى أقساط يا ماما. إن أمكن.

– ممن يا بنى؟

– من الذين يقرضون الناس.

– حسن ليت ذلك ممكن.

قلت بحماسة الجندى الذى حجز عن القتال وهو فى الميدان:

– اتركينى إذن.

– تركتك. بدأ كل منا يكبر. أنت تشب وأنا أشيخ.

* * *

قلت «لعم السيد» فى الصباح التالى وأنا فى الإدارة: رأيتك تتوسط كثيرا فى تفريج ضائقة الموظفين يا عم سيد وهأنذا جاء دورى.

فضحك الرجل بحنان من يعرف مرارة الدواء واحتياج المريض فى وقد واحد، وأبدى استعداده للخدمة. ولما عرضت الشروط على أمى ظهر ذلك اليوم وافقت موافقة المضطرين والقلق من المستقبل

يبدو على حركاتها.

وقادنى عم سيد مساء اليوم التالى إلى الجيزة. إلى منطقة نائية تتفرق فيها المساكن تفرقا غير ملموم على أرض لا تزال عليها آثار الزراعة. وفى مسكن لم تلاصقه المبانى بعد، جديد صغير ذى طبقة واحدة تقابلنا مع من دعاها عم سيد ونحن فى الطريق: بالست جليلة.

كان كل منا يفحص الآخر بنظرات طويلة أنا وهى... ودعت عم سيد إلى الداخل كأنما لتتأكد منه أن (هذا الشاب) لن يسبب لها متاعب. وأن عم سيد مسئول أن يأخذ القسط أول كل شهر من مرتبى ليوصله إليها.

وسمعت أن لها فى كل مصلحة سمسارا وأنها لذلك قلما تلجأ إلى القضاء. وأخذنا منها مبلغا يعتبر كبيرا بالنسبة لحالنا. وأخذنا نرمم البيت ولقينا فى سبيل ذلك عناء لا يوصف.

وأحسست بحسرة تفوق حسرة أمى حين أشار علينا أحد العمال بلهجة الناصحين أن نهدمه أو أن (نسقيه) لأحد المشترين بواسطة سمسار ماهر. لأن بناءه كقطعة السكر المبلولة.

وضحك العامل عن أسنان صبغها الشاى فكأنما أغمد فى قلبى خنجرا صدئا.

كانت هذه القضية بالنسبة إلى لا تعنى شيئًا، فماذا لو تخلصنا من غير الصالح فى حياتنا كلها؟! لكنه كان بالنسبة إلى أمى ذكريات ضخمة ترى ملامح حياتها فى كل ركن فيه. وأكدت لى ذات مرة

أنها تسمع على سطحه وقع خطوات أبى. ولم يكن هذا يعادل أنه يؤوينا من التشريد.

لكن ذلك عنى أننا غرقنا فى الديون. رأسنا فى الهواء الطلق وجسمنا كله مغمور. وكثر تردد بدرية على بيتنا وكانت تفضل أن تبيت عند أمها بعض الليالى، لأن معها طفلة سقيمة كثيرة الأمراض. وبدأت أمى تعيد تاريخ الحنان من أوله لأن «أعز من الولد ولد الولد». وخرجت مسائلى أنا من بؤرة الشعور فابتعدت نحو الحوافى.

وسألت نفسى فى يوم من الأيام. متى ستقلع هذه الفتاة من أرضنا؟

إنها تجدد جذرا كلما جف جذر. وتتربص بزرعتنا كما تتربص الجرادة. بنتها تصرصر فى الحجرة الأخرى طول الليل وتبكى بحرقة كأنها سلبت شيئًا. وقد يجىء رشدى ليأخذ زوجته فيتأخرون فى السهر فيفضلون أن يبيتوا حتى الصباح. وأمى تبذل من الحنان فائضا أنا محتاج إليه. لكننى لا أستطيع أن أحزنها. وفى كل أول شهر تنهال الاستقطاعات على مرتبى بشكل جعلنى أحس كأننى أطعم قوى مجهولة. فأنا رجل قليل النفقات أو معدومها إذا كان ذلك ممكنا. وأمى تحتال بشتى الوسائل لتشترى الدواء. لأنها بدونه ستتوقف كما تتوقف الآلة، حتى فترة الحذر وبداية السكر، حرمنا منها فلم نظل أكثر من عام. بعده بدأ جارنا يبنى والست بدرية تلد. أما أنا وأمى فليس

فى حياة أحدنا لا بناء ولا ولادة!!

وأصبت ثانيا بطوفة من الضجر والملل وعاودنى الشعور بالحرمان يحز فى إحساسى كأنه المبرد وعادت زينب إلى أحلامى وفكرت فى أن أذهب إليها... وتذكرت وأنا فى الطريق الست جليلة. المرأة الجميلة فى خريف العمر. وجعلت أوازن بينها وبين الفتاة التى استعدت مرارا كثيرة لأن تهبنى. أين هى الآن؟ كنت أعتقد أنها ليست فرصة لكن الحوادث تنخر الآن فى عقيدتى.

ومن خلال الجمع الخطير فى ميدان السيدة رأيت ذات يوم ظهر فتاة تلبس السواد إلى جانب رجل يبدو كأنه برميل. طربوشه إلى الوراء يتأرجح زره. وبطنه إلى الأمام وظهره مقوس. وافترضت أنهما هما زينب وزوجها. لكن العود نحيف والشعر أطول والقامة أكثر امتدادا كانت قصيرة مكتنزة فيما قبل مثل الست جليلة أما هذه فليست كذلك وحثثت خطاى حتى أدركتهما فإذا بى أرى وجه زينب حافظا ملامحه فاقدا تعبيره خاليا من المساحيق لأنه حزين.

وحملقت فيها فأهدت إلى نظرة رادعة وزوجها إلى جانبها يمشى كالدجاجة البياضة وجهه محتقن غليظ خشن مغفل. ولم أكلمها ولم أبتعد عنها ولعل ذلك حملها على أن تلقى إلى ببعض أخبارها لأنصرف فسمعتها تقول لزوجها:

– هذه عيادة الطبيب الذى عالج ماما رحمها الله... إنه بارع يا

حاج فتكلم وكأن فى فمه لقمة:

– آجال... أعمار!!

وانفتح باب الحديث بينهما:

– لو أنها عاشت قليلا لأدركت خطبة أخى الكبير يا حاج...

– أعمال آجال...

– والغريب فى الأمر أن أخى الصغير انصلح حاله بعد موت أمه (ومصمصت بشفتها) ناس يفسدهم الحنان..

ونظرت نظرة جانبية.

واستطرد زوجها وكأن فمه محشو بشىء:

– أهوال.. أحوال!!

قالت وعلى فمها خيال ابتسامة:

– أهوال صدقت يا حاج. لا فائدة. النسيان أحسن.

ثم انحرفا إلى أحد الشوارع فتراجعت إلى الميدان وهناك وقفت تحت عمود الساعة أسألها فى حنق صامت عن قيمة الزمن هذا الذى تحسبه آناء الليل وأطراف النهار... حتى ولو بالنسبة إلى!!

* * *

وغاب عم سيد عن الإدارة أول الشهر التالى لأنه كان مريضا فوجدت نفسى بلا مراوغة أحمل المبلغ المعهود وأذهب به إلى الست جليلة. كان الوقت ليلا والحى غير مضاء. وفى الأرض حفر بعضها رطب وبعضها جاف وحين طرقت الباب فتحت لى صبية فى

السابعة من عمرها بديعة التقسيم وفسحت لى سبيل الدخول حين سألتها عن أمها، وسارت أمامى وهى تعرج.

وجلست على كنبة بعد المدخل أمامها أرض مكشوفة ولم تلبث الست جليلة أن جاءت من الداخل.

لم تكن كريهة الوجه ولا سيئة الطباع كما يتبادر إلى الذهن عن امرأة تقرض بالربا. بل كان كل شىء فيها هادئا متريثا حذرا كأنها تخاف أن تخطىء. وجهها المستدير كأنه رسم بالبرجل وفى عينيها وميض قلما ينطفئ.

جاءت تمشى ببطء وسلمت ببطء وهى تبتسم ثم جلست على الكنبة على بعد منى – ببطء شديد. وذراعاها متربعان على صدرها ونظراتها إلى قدمها نحو الأرض. وقدمت إليها المبلغ فأخذته بطريقة لا مبالاة فيها ثم قامت إلى الداخل لتحضر الكمبيالة، فأتاحت لى فرصة أن أتفحصها وهى مدبرة. عودها قصير لين مفصل وعجيزتها تميل إلى الامتلاء وضفيرتان من شعرها كانتا مستقرتين وسط ظهرها.

واستأذنت بعد أن أخذت الكمبيالة لكنها سألتنى بلطف أن أبقى حتى أشرب القهوة وكان طبيعيا أن أعتذر وأشكرها.

وجعلت أسأل نفسى وأنا راجع لماذا لا يبدو شىء من القسوة على ملامحها؟ إن بعض الرذائل يستلزم بعضا آخر منها، وحتى الحِرَف المشروعة تعطى أصحابها طابعا معينا، فلماذا لا تبدو على وجهها القسوة؟!

ولما وصلت إلى الشارع غمرنى النور فنسيت أمرها وتذكرت حالنا فى البيت:

باتت أمى تبكى بدموع حرى طول الليل: لأن بنت بنتها مريضة ورشدى رجل وديع يقيم حيث تقيم زوجته. ولما عبرت العتبة كان وجوم غير عادى يخيم على أنحاء البيت. وصهرى راقد فى السرير ممطوط يتلمظ بعد أن فرغ من الأكل. والأم جالسة وفى حجرها الطفلة، وبدرية تحمل خدها على كفها. كنت جائعا فلم يسألنى أحد عن طعامى، فقررت أن أدخل فورا إلى غرفتى. وترك هذا فى نفس المرأتين أسى وعتابا لأننى لم أبد اهتماما بالطفلة المريضة!!

وشيئا فشيئا نسيت الإحساس بالجوع وألقيت سمعى إلى اصطفاق الأغصان وجعلت أفكر فى أمر نفسى تفكير رجل يريد أن يغير ما حوله:

– لا بد أن تتغير هذه الحال. يجب ذلك. ولكى يتحرر السائل المحبوس ينبغى أن تتحطم الزجاجة ما دام من غير الممكن أن ينفتح سدادها...

وتنهدت. وحاولت أن أحدد نقطة المسئولية. النقطة الحقيقية التى تدور حولها مأساة حياتنا التى تنمو كأنها نبات متحجر.

فلم أر مسئولا عن ذلك كله إلا الخوف. أنا خائف من أمى وخائف عليها وأمى تبادلنى نفس الشعور. لذلك اشتركنا معا فى

دق الأوتاد وربط نفسنا إليها، واستفاد من هذا الرباط ناس آخرون غيرى وغيرها.

– لا بد أن تتغير الحال بضربة واحدة. تأتى من يد لا يجرؤ أحد على لومها، ولا ردها...

وتنهدت مرة أخرى وتساءلت ما الذى يجعل بدرية تكف عن استغلال مواردنا المعصورة، إلا أن تموت أمى؟!

وأنت الطفلة فى الحجرة البعيدة أنينا مسموعا ترددت بعده فى الصالة خطوات تروح وتجىء كأنما لتحضر شيئا لها. وتخيلت مع هذه الحركة أن أمى خارجة من البيت محمولة للمرة الأخيرة وأننى سأكون وحيدا بعدها مستقلا لا أسمح لأحد أن يدخل على... فوجدت الفرق بين الحالتين هو الفرق بين غراب وغراب. فتحسرت وانتقل خاطرى إلى شخصية شاب قرأت عنه أنه هرب وحيدا لا يملك شيئا إلى إحدى البواخر التجارية وظل يؤدى فيها من الأعمال ما يساوى أجر ركوبه، حتى هبط أوربا فعاش وتعلم وعاد إلى وطنه شخصية مرموقة. أى قلب يملكه هؤلاء الناس. حرام أن يكون مثلهم للفناء. أما أنا...

ورحت فى النوم شيئا ما والأغصان تصفق على مقربة من نافذتى، والكلب ينبح بعض الوقت ويكف. فرأيت فى غفوتى ثلاث نسوة امرأة تبيع الهوى فى صدر شبابى فلم أستطع أن أشترى منها، وشيعتنى ليلتئذ إلى الباب بسخرية مريرة. وفتاة قريبة العهد

كانت تريد أن تهبنى الحب فلم أستطع أن أمد يدى إليها، فودعتنى باحتقار ورضيت بزواج كانت تعده تعاسة. وامرأة كنت عندها منذ ساعات قلائل صممتها بخيالى ألف مرة وهى تمشى أمامى ثم عدت من عندها بحزن مبهم...

واستيقظت على حركة أخرى ثم رحت فى النوم. وعند الصباح خيل إلى أن أمى وأختى ساخطتان على سلوكى. ثم كان البيت وقت الظهر خاليا من الضيوف تماما، وعلى وجه أمى علامات ضيق من الممكن أن تتحول إلى شجار لأى سبب فحاولت هذه المرة أن أكون شجاعا.

جلسنا نتغدى فى صمت لا تسمع فيه إلا حركات الملاعق وأمامنا طعام ملفق لا يفتح الشهية. وأدركت أمى أننى لن أبدأ بالحديث فقصدت أن تكون البادئة:

– لماذا لا تسأل عمن كانوا هنا؟

فقلت ووجهى إلى طعامنا ببرود غير مألوف:

– لأنى أعلم أنهم صاروا هناك؟

– بدأت تتغير!

– كل يوم هو فى شأن!

– تذكر رضاى عنك وحاول ألا تكتم عنى شيئا.

فنظرت إليها نظرة فارغة وكأنما لا تربطنا ذكريات وقلت لها:

– أنا لا أملك شيئا أخبئه عنك.

– ليت الأمر كذلك.

– أنا لا أملك إلا حياة فارغة لا تساوى همها.

فأجابت مرتاعة:

– هل أنت ضجر إلى هذا الحد؟! لم يعد هناك ما يستحق الضجر يا بنى... الاثنان عدد ينقسم بسهولة. هل أنا عبء عليك؟

– لست عبئا على أحد...

– ليتنـــى مت قبل أبيك فارتحت من العنـــاء.. أنت بحاجة إلى امرأة.. تزوج يا بنى فأنا لا أسد طريقك. لم أعد محتاجة إلا جرعة من الدواء وكسرة الخبز. ومعاشى يكفى لذلك. أما الديون فقد كانت من أجلكم أنتم...

وظللنا صمـــت اندفعت بعده أقول بصوت مرتفع وكأننى أخاطب غير أمى:

– خلاص ضجرت من هذه الحياة. لقد اتخذت قرارا نهائيا..

ولعل التصميم كان باديا فى وجهى بشـــكل لا يقبل الشك ويثير الجزع والمخاوف. قالت أمى بنبرة أشد عطفا ولينا:

– طيب وعلام عزمت؟

فرددت بصوت أكثر ارتفاعا كأنما لأسمع جميع الناس:

– على الانتحار... على الموت... على أن أقتل نفسى. هل فهمت الآن ما الذى أنوى عليه؟!

وهبـــط الصمـــت مرة أخرى وانســـحبت أمى كأنهـــا مجروحة، وبقيت جالســـا وحدى على المائدة بعـــد أن خلت من الطعام تقريبا؛

أحس سخونة الغضب على شحمة أذنى، وأراقب ملعقتها فى الطبق بعد أن تركتها مملوءة بالكشرى فلم ترفعها إلى فمها حتى لا تفوتها فرصة الفرار من تهديد ابنها ووعيده...

وارتديت ملابسى ثانيا وخرجت. أما هى فقد كانت فى غرفتها المغلقة وخيل إلى وأنا أعبر الباب الخارجى وأرفس الكلب وهو يتمسح بى أن عينيها تودعانى من خلال زجاج إحدى النوافذ.

وأخذت أصعد الطريق المؤدى إلى الجبل حيث يقعد المرصد وخزان المياه. والشمس ربيعية لينة لم تقس بعد على أحد. وبعض نباتات وحشائش تنمو على يسار الطريق لكثرة تدفق الماء من المضخة التالفة الواقعة على المرتفع. وكانت هذه الأعشاب على تفاهة فصيلتها تشارك فى الوجود وتبشر بالربيع الوافد بأزهار ملونة على قدر حالها. والجو – على العموم – قادر على أن يواسى المهموم.

وأخذت ألهث فوقفت أستريح. كان ظهرى إلى الطريق حين وقعت عليه كف ينبهنى صاحبها إلى وجوده... وعرفته من خلال صحة تالفة وبوادر شيب يلمع على فوديه. أحد زملائى فى المدرسة كان هابطا من أعلى وفى يمينه صبى ابن ثمانى سنوات، صورة واضحة مهذبة من أبيه.

ووقفنا برهة نذكر الماضى ثم عرجنا على الحاضر فسألنى عن حالى وقال:

– هذا ابنى... هلم... هل عندك عروسة تناسبه؟

– ولا عريس!

– أوه... لم تخلف بعد؟!

– ولم أتزوج.

فقال بأسف من فجع فى أمل كان محققا تماما:

– يا شـيخ!!... حرام!!... (ثم أردف ضاحكا): أطلق سراحه من أجل خاطرى. أطلق سراحه.

فسألته:

– سراح من؟!

– سراح ولدك الذى تحبسه فى ظهرك. من الجائز أنك تسىء إلى البشرية إساءة لا يغفرها الله.

وفطنت فجأة إلى أنه انتقل من المزاح إلى الجد وكان يمسك بذراع ولده جيدا كأنه خائف أن يفر. فقلت له بلهجة المكسوف:

– كيف تتكلم؟ ما هذه الإساءة التى لن يغفرها لى الله؟

– مـن الجائز أنك تحبس فى صلبك إنسـانا لو أطلقت سـراحه لعاش حتى يخفف عن البشرية آلامها بمخترع من المخترعات.

قلت يائسا:

– غريبة؟!

فاستطرد بحماسة:

– إنهم يعالجون المجانين فى المستشـفى بطريقة تثير الجنون.

الناس محتاجون إلى عقول فذة... فأفرج عن ولدك أفرج عنه!

وضحك عاليا وهو يشـد على يدى مودعا. ثم هبط المنحدر وابنه فـى أعقابه ونظراتـى تلاحقهما وتدعو لهما. ولمـا غابا عن بصرى استأنفت صعودى وأنا أستعيد كل كلمة من كلماته...

آه... لا شك أنه سعيد!!.

* * *

١٤

وظــل الخصام بينى وبين أمى قائما ثلاثة أيام، حدث هذا للمرة الأولى فــى حياتنا. وفــى اليوم الرابع أعلنت أنها ســتبدأ فى خلع أســنانها بعد أن تصرف معاشــها الشــهرى لأنها لم تنم من الآلام طوال الليالى التى مضت فأجبت باختصار:

– سلامتك.

فسألت بذل:

– هل تحرص على سلامتى؟!

قلت وأنا مطرق:

– طبعا!

– أتخاصم أمك؟ كنت أحسست أن قلبى بدأ يغضب عليك ابتهلت إلى الله أن يرعاك يا عينى الواحدة التى أرى بها الدنيا..

وكظمــت غيظها وكتمت أنفاســها واغرورقــت عيناها القويتان بالدموع. وكان وجهها شاحبا طويلا تبدو عليه – حقيقة – علامات الارتباك. فأحسست بجرمى واضحا فانفجرت أبكى.

– أتبكى أيها الرجل؟!... ماذا تركت إذن لأمك؟!

واحتضنتنــى كأننى عدت طفلا. كان الوقت ليلا، ونحن لا نزال

على المائدة بعد انتهاء العشاء. ولم يكن هناك فرصة لاجتماعنا أيام خصامنا إلا فى ساعات الطعام، وبعدئذ كنت أخرج أو يأوى كل منا إلى غرفتــه ولم تزرنا بدرية منذ أســبوع وكانــت أمى تذهب إليها للسؤال عنها .

وقادتنــى من ذراعــى ودخلنا إلى غرفتى. وجلســت على الكنبة ورقــدت واضعــا رأســى فــى حجرها. ومالت تتحســس شــعرى وتناجينى:

– حــاول ألا تعتقد أننى ظلمتك يا فــؤاد. ربما أكون قد حابيت أختك شيئا ما. لكن أنت تعلم أنها طماعة...

ثم سكتت ويدها لم تسكت عن العبث بشعرى. وألقت نظرها إلى النافــذة وجعلت أنا أنظر إليها وأفكر: «إنهــا تريد لحياتها ختاما هادئــا. هذا كل ما يشــغل بالهــا. وترى أن الهــدوء والطمأنينة لا يكونــان إلا تحت جناحى. لذلك هى تحــرص على». وقطع صوتها خيط أفكارى حين قالت بحماسة:

– لا بد لك من الزواج. لن أستطيع أن أراك عازبا بعد اليوم.

– إننا مدينون.

– هناك. هناك أشياء إن فكرنا فى تفاصيلها كان من المستحيل أن تعملها... سأبحث لك عن بنت الحلال أولا وبعد ذلك ندبر الباقى.

– آه... وأين بنت الحلال؟

– محجوزة لابن الحلال. وأنت ابن حلال.

ثم شردت وعادت تسأل:

– ألم تعد تسمع شيئا عن فاطمة هانم؟... رحمها الله... أقصد عن بنتها زينب؟

فأجبت بحذر:

– أوه... تزوجت من زمان!

فابتسمت ابتسامة غامضة:

– إنه النصيب. على كل حال سأبحث حالا عن الفتاة التى تناسبك ليتك أحببت وتزوجت وأرحت بالى من زمان!

ولم أرد عليها لأننى رثيت لها فقد بدأت تعتبر الأشياء التى تركناها بمحض إرادتنا أشياء نادرة وفرصا. وهذه أول مراحل الندم.ثم أحببت أن أجرها إلى المهر لأعرف ماذا يمكن أن نصنع.

فقلت لها فى شبه مزاح:

– الفتيات كثيرات يا ماما والعبرة بالجنيهات.

فأجابت بحماسة المقامر الذى يخلع خاتم الخطبة بعد أن تفرغ نقوده:

– أبيع البيت، أو على الأقل.. نصيبى فيه.

واستطردت بعد صمت لم أتكلم فيه..

– ومن الجائز أن تأخذ ترقية. ومن الجائز أن يأتينا رزق لم يكن فى حسابنا. على أنه يجب أن نشرع فورا فى البحث عن الفتاة. فؤاد... يجب أن أزوجك قبل أن أموت!!

* * *

وركبنـــا القطار عصر هذا اليوم ونزلنا معا إلى العاصمة وفى مرآة صالون حلاقة على واجهة المحل رأيت شـــبحى جنب شـــبح أمى. لـــكأن المرايا خارج بيوتنـــا أصدق تعبيرا من المرايـــا التى نقتنيها. خيل إلى أننى وهى شـــخصيتان تثيران القلـــق والرثاء عند العقلاء، والضحك عند العاديين من الناس. لماذا يمســـك كل منا بالآخر بهذه الطريقـــة؟! إن كفها العجوزة ينبغى أن تمســـك بيد أحد أطفالى لأن كفى لم تعد صالحة لأن تدلل وربما كان ذلك كله أوهاما...

وذهبت إلى الإدارة وذهبت هى إلى طبيب الأســـنان. ولما انتهيت مـــن عملى لم أعد إلى المنزل فورا بل قصدت إلى منزل الســـت جليلة لأستشيرها فى أمر خطر على بالى.

وجدتها فـــى الداخل تتناقـــش مع بعض النســـوة، وكان صوت إحداهـــن يأتى عاليا حـــادا متلاحق الكلمات. وكن يتناقشـــن حول نقود. وكنت جالســـا حيث جلست فى المرة السابقة على الكنبة فى مدخل البيت. وعلى مقربة منى جلست الصبية العرجاء التى عرفت منهـــا أن اسمها (عزيزة) وإلى جانبها أخوها الأصغر فى الخامســـة من عمره أو السادسة على الأكثر، وعرفت أن اسمه (نبيل) وجعلت من الصغيرين تسليتى حتى تفرغ أمهما من شأنهما وتخرج إلى. كان بين يديهما أحد كتب القراءة المقررة على الأطفال، وكانا يتنافســـان فـــى القراءة فيه وكثيرا ما كانا يخطئان معا أو يعدل المصيب منهما

إلى رأى المخطئ بطريقة بريئة تثير ضحك الكبار. ولما طالت جلستى نوعا فضلت أن أتسلى معهما. جلست الصبية إلى يمينى وجلس الصبى إلى يسارى وبابتسام وطيبة أنسا بى وارتاحا إلى كأنهما يعرفانى من قديم.

وجلسنا ندرس ونمزح ونبتسم. ومر بنا فى هذه الجلسة ثلاث نسوة خلفهن الست جليلة. ودعتهن إلى الباب ورجعت لا تخفى فى عينيها الدهشة لحضورى. وسلمت وجلست ببطء شديد وذراعاها متربعان على صدرها والصبيان واقفان على مقربة منا فى عيونهما ترقب للأوامر ورغبة فى أن يعود إلى ما كانا فيه. وعلقت أنا على عملهما بكلام يرضى الأمهات. فوصفتهما بالذكاء وبأن شيئا من الرعاية قد يخلق منهما تلامذة ممتازين. فلمست قلب الأم.

ولم أر فى عينيها هذا المساء نظرات الحذر. وكان الصمت الراقد على شفتيها – بطبعها – كأنه قفل، يوحى أنه على وشك التحطم. وأحسست أنها مستعدة لأن تقول شيئا على شرط أن تكون الفرصة ملائمة.

وعاد الطفلان فجلسا على القرب منا ورجعا إلى ما كانا فيه. والتقيت بالأم وجها لوجه ووجب أن أقول لها لماذا جئت وسألتها:

– إننا نتعامل منذ أكثر من عام يا سيدتى، فهل أنت مرتاحة إلى معاملتنا؟

– من غيرشك...

ونظرت فى عينيها فى هذه اللحظة فخيل إلى أن فيهما حسن

استعداد.

– مــاذا يكون رأيك لو أننى طلبت مبلغــا جديدا... إنه... غير إنه... مبلغ صغير... صغير جدا.

فلــم ترد على. غير أن وجهها لم يكن مطبوعا بطابع الخوف ولا بطابع الضجر، ثم ردت بجواب بعيد عن سؤالى:

– هل رأيت هؤلاء النسوة اللائى خرجن منذ وهلة... لقد عجزت أن آخذ من إحداهن حتى حقى المر!

– لا علاقة بين الشيئين يا ست جليلة. ثقى بى!

– أنا أعلم ذلك.

ثم ســادنا صمت، وجاءنا صــوت (نبيل) يتهجــى فى الكتاب ويتغنى بمعونة أخته: أ.. ح..ب..أ..مى. أحب أمى.

ولمــا انتهــى من الجملــة لهث ومسـح أنفه وكأنه عــبر النيل. فابتســمت ونظرت إليه من بين أجفانى نظرة كأنها تحتضنه. ولعل الأبــوة «الموقوفة» كانت بادية فى نظراتى كما يبدو النهار، وعلقت الست جليلة وهى تنظر إلى ابنها قائلة بلهجة واثقة لكنها لا تخلو من الأسى:

– صحيح يابلبل... هل تحب أمك؟

فضحك الصبى ضحكة عريضة ولم يجب كأنه يسخر من أوهامها، ثم انكب يقرأ من جديد وعلقت أنا على الموقف:

– ومن هذا الذى لا يحب أمه؟ خبرينى بحق، هل يوجد شخص

على وجه الأرض لا يحب أمه؟

قالت وهى تسند ظهرها إلى الوراء على الكنبة العريضة:

– لا بد أنك تحب أمك جدا... هل تتمتع بحياتها؟

– نعم.

– دام عزها عليك ودام عزك عليها، إننى لم أشعر بهم أولادى إلا بعد وفاة أمى وأمهم، وأنت ألا تشعر بذلك؟

– ليس لى أولاد.

فأجابت ببساطة:

– لا ضرر.. غدا يعوض الله عليك. منذ متى وأنت متزوج؟

فاحمر وجهى وخيل إلى أننى فتاة فاتها السوق، وقلت بصوت لم يخل من اضطراب:

– منذ متى؟. منذ... منذ... إننى لم أتزوج حتى الآن!

وضحكت معى ببطء وهدوء ووجه محمر. ثم قالت:

– لا ضرر أيضا. أنت لا تزال فى عز شبابك. كل إنسان له من الأعذار ما يكفى لتبرير موقفه...

– صحيح. إنك سيدة طيبة. يخيل إلى أن مستقبل حياتك خير من حاضرك بفضل أحد هذين الطفلين.

فأصغت كأنها تستمع شيئا جديدا. تطاير جزء آخر من الحذر الذى يبدو فى عينيها. لعلها لم تسمع مثل هذا الكلام من قبل. بل لعلها لم تسمعه من شخص مثلى وبمثل البساطة التى سقته بها.

سألتنى بدورها:

– هل لك إخوة؟

– معنا فى البيت؟ لا. كان لى أخت وتزوجت وانتهى الأمر.

فقالت بلهجة الخبيرات:

– إذن فأنت تعيــش مع الوالدة فقط. آه.. كان الله لها يوم تدخل بينكما امرأة جديدة!!.

– أمن الضرورى أن يحدث هذا دائما؟!

– غالبا ما يحدث.

– يفعل الله ما يشاء. هل نعود للموضوع؟

– موضوع النقــود؟ ارجع بعد يومين فليس عنــدى الليلة كلمة نهائية.

– شكرا.

قالت برقة:

– العفو.

ونظرت فى عينيها جيدا وأنا أســلم وملــت على الصغير فقبلته وأوصيته بالاجتهاد وربت على خد البنية.

* * *

وسهرت أمى تحكى عن كل ما صادفها فى عيادة الطبيب وتعلق على آلام الناس بطريقة من يريد أن يتســلى عن آلامه. ووجدت فى

هذه الليلة خبرا سعيدا استطعت أن أزفه إليها:

– بلغنى الليلة وأنا فى الإدارة يا ماما أنه من المنتظر أن يلحقنى الدور؟

فهتفت كأنها لا تصدق:

– فى الترقية؟!

– نعم فى الترقية.. إلى (السابعة) العزيزة؟

فكادت عيناها تدمعان:

– دعائى لك!!

ولم تفطن الأم إلى أن الله ظل يستمع إلى دعائها فى هذا الشأن ثلاثة عشر عاما، وأنه ربما لم يمن على بهذه النعمة إلا لتكف أمى عن الإلحاح. ثم عدنا إلى وصف ما لقيته فى الخارج وكان أهم ما شغلها تلك السيدة الوسيمة التى صادفتها وعلامات الثراء البادية على هيئتها. ثم استطردت أمى:

– عندما تتوطد العلاقة بيننا شيئا ما سأسأل عن أولادها.

وفهمت قصدها: ثم قلت:

– إذا سارت الأمور على ما يرام فعندى فكرة ربما تروقك.

فأصغت بطريقة تدعو إلى التشجيع فاستطردت وكأننى أمزح:

– ماذا لو منحنا العلاوة الجديدة التى سأنالها للست جليلة نظير مبلغ صغير نأخذه منها ونقدم به (شبكة) لإحدى الفتيات؟!

– رأى حسن. وهل توافق الست جليلة؟

– الجواب عندها لو سألناها.

وسمعتها تتنهد وانكبت علـى معطفها تركب له بطانة بعد أن نزعت عنـه البطانة البالية، أما أنا فقد صرفت عنها نظرى مخافة أن أرى على وجهها – ولو وهما – أنها غير مقتنعة وأنها تجاملنى فحسب.

* * *

وحل الموعد المضروب فذهبت إلى مسـكن الست جليلة. كان الجو مائـلا إلى الحـرارة. وتراب الحى الذى لم ترصـف أرضه يعقد على ارتفاع غير منخفض سحابة ضبابية خفيفة. ولما طرقت الباب فتحت (عزيـزة). وكان أخوها واقفا إلى جوارها أسمر مسمسـم الملامح كأنه قطعة من الشهد. وتعلق بذراعى وهو يسألنى عما إذا كنت أملك كتابا فيه صور جميلة فأهديه إليه؟ فوعدته به وأنا أبتسـم، ثم جاءت أمه فحالـت بيننـا. وما لبث أن غاب عنا وذهبـت عزيزة تجهز فنجالا من القهوة، فى اللحظة التى جلسـت الأم فيها على الكنبة ووجهها يحمل علامات التعب أو التفكر. فقلت لأفتح باب الحديث:

– هل أنت بخير؟

فأجابت وملامحها لم تتغير:

– الحمد لله.(ثم أردفت وهى تبتسـم فى استسلام وتقلب كفيها) نأكل!... نجرى فى النهار. وننام فى الليل!!

– شأن كل الناس!

– ليس كل الناس. لو لم يكن معى هذا الصبى وهذه الصبية لضحكت من متاعب الدنيا.

قلت فى نفسى: إنها تشكو. هذه التى سعيت إليها لتفرج ضائقتى لا تملك الآن إلا أن تبثنى شكواها. إن ظروفا قاسية دفعتها حتما إلى هذه المعيشة. يا إلهى إن المتاعب إذا لحقت حياة النساء جعلت منهن كائنات يطلبن رثاءنا مرتين. قلت وأنا أتنهد بعد أن تركت لنا الصبية فنجالين من القهوة ومشت:

– لا تحزنى!! يكفى أنك سيدة وأنك حملت العبء كما يحمله الرجل!

– أنت شاب رقيق الطبع.

فاستطردت دون أن أحس:

– لقد تركنى أبى رجلا، أو على الأقل شابا يستطيع أن يكسب تركنا وترك لنا. ولكننى مع ذلك.. تعثرت فى الطريق.

فانفرجت أساريرها كأنما كانت آلامى (مسكنا) هدأ من آلامها، ونظرت بعينين أكثر قربا ومودة وأخذت فنجالا وقدمت لى فنجالا وجعلت ترشف ببطء وهى تنظر إلى.

ومما لا شك فيه أن كلا منا كان قد نسى المهمة الأساسية التى التقينا من أجلها وكنت أنا أكثر نسيانا. هل جربت لحظة طمأنينة تخللت أيام مخاوف، أو سنة من النوم تخللت ليلة أرق وألم؟؟ كان هذا هو نفس إحساسى. وكل ما فيها يؤكد أنها أنثى غلبتها

الظروف فمنحتها حياة شائكة الأطراف.

وظلت صامتة ترشف وتنظر وكأنها تستزيدنى كلاما، فقلت:

– الناس لم تجعل آخر الطعام «حلويات» عبثا..

فاستفهمت بسرور:

– لست أفهم!

– الختام الحلو ينسى متاعب دهر كامل. أليس من الجائز أن تكون أيامك المقبلة كالحلويات فى آخر الطعام؟

فانفجرت تضحك، واحتقن وجهها فصار فى لون القرمز. وكان هناك جزء من كتفها يبدو ناصعا عند سفح العنق... يبدو من فتحة الصدر العريضة. وشعرها الأسود كان شبه مغسول. ولما زالت آثار الضحك عاد الهدوء فخيم كأنما لم يحدث شىء. تماما كما ينزل الصمت بعد ضوضاء عنيفة. ونظرت وقالت:

– إن معاملتى للناس جعلتنى أكتسب خبرة أعرف بها نفوسهم يحدث مثلا أن يطلب منى رجل تبدو عليه علامات التدين – مبلغا من المال ويقدم لى الضمانات التى أرضاها، ولكنى مع ذلك أحس أنه مماطل غشاش. وبمضى الزمن يصدق تخمينى. وقد يحدث...

فقاطعتها ضاحكا:

– ترى من أى نوع أنا؟

فأجابت وفى عينيها حنان:

– أنت؟... ستعرف فيما بعد.

ثم قالت بعد إطراق:

– القصـد... عرفت طريقة معاملة النـاس بعد أن دفعت ثمنها غاليـا أتدرى مثل أى شـىء؟ مثل التى فقدت بصرها فى شـبابها فعلمتها الجدران وعثرات الطريق كيف تكتسب خبرة العميان...

ثم ابتسـمت فى يأس ونظرت إليها فخيل إلى أن كل شـىء فيها وديع، وأنها لا تمانع بتاتا أن أمسك كفها أو أتحسس شعرها. لكن تأملـى لم يطل فقد سمعنا دقة شـديدة على البـاب وأصوات صبيان مختلفة يرتفع فوقهما جميعا صوت يقول:

– نبيل لسـعته عقرب... هناك... عند مخـزن الخرق والورق حيث كان يلعب.

* * *

كانت عيناه السـوداوان مليئتين بالألم تنحدر منهما الدموع فى تلاحق كأنما تسـحها قطارة. وعليه جلباب بدت خطوطه سـوداء تحت مصباح الجاز الذى خرجت به إحدى النسوة من بيت قريب. وكنـت أول مـن وصل إلى الصبى فقـد خرجت أعـدو إليه وربطت سـاقه بمنديلى. وحملته على ذراعى فلـف يديه حول عنقى وأخذ ينتحـب. ولما تأملت وجهه فى النور رأيت على خده لطخة صنعها الـتراب والعرق، ومع ذلك نازعتنى نفسـى أن أقبله. وأخذ يتلوى بعنف كأنما حمله الحنان الجديد على ذلك، وأفهمت أمه التى بدا عليها الجزع أنه لن يموت وأن المهم فى الأمر أن نسـعفه بسـرعة.

واخترقت به أقرب طريق إلى الشـارع الرئيسى لنأخذ سيارة أجرة إلى المستشـفى وكانت هى ورائى. وتبعنا بعض الصبيان مسافة غير قصيرة ثم عادوا.

ولما اسـتقر بنا الجلوس فى السـيارة صممـت الأم على أن تنقل الصبى إلى حجرها. وكنت أميل عليه لأجس نبضه وكانت السـيارة تميل بنا فى المنعطفات فتتلامس أجسـامنا نحن الثلاثة فأحس أثر التلامس على الرغم من كل شىء.

أمـا المظهر الذى كان باديا علينـا والذى يخص عيون الناس فى العادة فتستنبط منه العلاقات بين كل اثنين – فقد كان غير مريب. ومن المحتمل أن يكون السائق قد ظننا زوجين مع فارق فى الطبقة، بسـيط جدا، وفى السـن أيضا، لأنها تبدو أكبر منى ببضع سنوات وهـذا الصبى ذو الجلبـاب المخطط والقدمين المعفرتـين بعد أن فقد شبشـبه أثناء الحادث، جائز أن يكون ابنى. فإن ملابسـى ليست أنيقـة ولا تدل على الرخاء ولا العيشـة المرتاحة، وليس هناك إلا وجهـى الذى يدل على أننى انحدرت من أسـرة ذات عز قديم. من تلك الوجوه التى تشـير إلى ماض خصب وحاضر مجدب. وتثير فى النفوس الحساسة شيئا من الرثاء.

وربما كان هذا لا يعنيك بقدر أن تعلم أننا وصلنا إلى المستشـفى بعد ربع ساعة والتقينا بممرضة رقيقة ألقت علينا درسا فى وجوب المحافظـة على الأولاد. وكان يبدو أنها مرهقة من العمل، إلا أنها

طيبـــة القلب. ولم يخل الموقـــف من التلكؤ ولا ضيـــاع الوقت حتى أخـــذ الصبى (المصل المضاد) فحملته مـــن جديد وخرجنا إلى الطريق وناديت سيارة أجرة.

وكانت جلســـتنا ونحن عائدون أكثر طمأنينـــة وحلاوة بالتالى.. كان الصبى فى حجرها وكنت أنا إلى جوارها. والعربة قديمة كثيرة التفزز يســـوقها صاحبهـــا ببطء وحرص. ولأمر لســـت أجزم به لم يوقـــد المصباح الداخلى. وكان (نبيل) يئن لكن بشـــكل غير متصل، فكنـــت أميل لأجس نبضه أو لأربت على خده أو لأعزيه عن آلامه. وبعد فترة ونحن نعبر جســـرا على النيل سألنى الصبى فجأة بنبرة يخالطها الألم:

– هل أحضرت لى الكتاب ذا الصور الجميلة الذى وعدتنى به؟

فســـعدنا كأنما نطق للمرة الأولى وأدركنـــا أن هذا أول دليل على السلامة، وأن الألم لم يعد قادرا على أن ينسيه شئون حياته.

فملـــت أقبل خده... فى الظلام النســـبى فى نفـــس اللحظة التى فعلت فيها مثل ما فعلت، فتلاصقت خدودنا على وجهه واختلطت أنفاسنا واستطاعت واستطعت أن نعبر فى صمت لا يوصف عن مقدار حاجة كل منا إلى الآخر؟!...

كان رأس الصبـــى إلى ناحيتى وهو مســـتلق فى حجرها وقد لفت ساقيه فى شال قديم وعيناه تنظران إلى سقف العربة فأرى اتساعهما فـــى النور كلما مررنا على مصباح. ولعله كان يتســـاءل من أين جاء

هذا الحنان وكنت مستندا إلى الوراء فى جلستى أنظر بشبه ذهول إلى الطريق وظهر السواق وفخذى لصق فخذ الست جليلة، وخواطرى تثب فى كل مكان إلا «حلوان» حتى وصلنا إلى البيت.

لم يكن فى الحى صبيان، فقد تأخرنا فى العودة ووجدنا (عزيزة) قلقة بانتظارنا، وذهبت تصنع لأخيها شرابا دافئا فى الوقت الذى نهضت فيه مستأذنا للخروج. وتكلم الصبى يستبقينى فوعدته بالعودة، ونظرت أمه إلى تحاول أن تشكرنى فعجزت عن التعبير إلا عينيها. وفى الشارع الرئيسى هبت على نسمة شمالية أيقظتنى من أحلامى فسألت نفسى سؤالين لعلهما يجولان بخاطرك:

«لماذا لم نتحدث عن المبلغ؟!».

لأننى رأيت فيها فى هذه الليلة امرأة غير التى رأيتها من قبل... ومعنى أكبر من النقود شغل خاطرينا.

«وتكاليف الانتقال إلى المستشفى؟!».

ولم يكن ممكنا أن أقبل – ولو أننى محتاج إلى نقودها – أن تدفعها هى، بل ولم أرها تحاول.

وكانت مهذبة فى ذلك أو كانت حسنة الإدراك، ودفعت أنا ما يقرب من ثلاثين قرشا، كانت كثيرة على؛ ولم يبق من الخمسين قرشا التى أخذتها لأشترى بها قميصا إلا ريالا، وكان قطعة واحدة من الفضة رننته ليلتئذ خمس مرات على أحد أحجار الرصيف!

* * *

١٥

– لماذا تأخرت هكذا يا بنى؟! قلقت عليك. البيت خال والصداع ينسف رأسى بعد خلع الضرس. أخشى أن يكون الطبيب أخطأ فى شىء! هل اشتريت قميصا؟ ماذا قالت لك الست جليلة؟ عسى أن يكون الله قد سهل!.. آه سأقوم لأتمضمض.

بهذا كله هتفت أمى بعد دخولى وأنا جالس أنظر فى صمت وابتسام كأننى (مسطول) أو فى معزل عن الحوادث. وحين رأيتها عازمة على القيام للمضمضة تطوعت فأسرعت بالذهاب لتجهيزها. ورجعت إليها بالدواء ومعه وعاء فارغ ثم تركتها وذهبت إلى حجرتى لأكمل خلع ثيابى.

كانت راقدة فى الفراش مرتفعة الحرارة شيئا ما، ووجهها شاحب وفى خدها نقرة صغيرة، وجلست على الكنبة ونظرت إليها فلم ينبض قلبى بعنفه المعهود، كأن شيئا من الحنان قد غاض منه، وتألمت، حاولت بينى وبين نفسى أن أستنهض روافد الحب بالنسبة لأمى، وأن أتأكد من قوة تدفقها القديمة فذهبت جهودى هباء. فتألمت مرة أخرى.

وفى هذه اللحظة التى سألتها فيها عما بها تركتها تجيب وانصرفت إلى أعماقى أفتش عن جواب لهذا الموقف. «ليس من الممكن

أن نفضل الحب عن الحاجة بتاتا، فلو ألغينا من الأمومة درها وحضنها وحرصها المتطرف، وجعلنا العلاقة بين الوالدة والمولود مجرد وضع الجنين لتحول الرقم إلى صفر. فالحب فى كل صوره حاجات وذكريات يا أماه!!».

وتألمت مرة ثانية لأن (حاجة) أقرب إلى الطبيعة، وأدنى إلى العرف بدأت تزحزح أمى عن موضعها فى نفسى. هناك فى الجيزة امرأة شعرت الليلة أنها على استعداد لأن تسكن آلام نفسى بطريقة جديدة على، وإن كانت فى قدمها ترجع إلى بدء الخليقة. وبسبب هذه اللحظات التى قضيناها فى المركبة لم تقلقنى آلام أمى كما كان يحدث فى العادة يا سلام!!

إن علامات التغير الليلة واضحة على ملامح حياتنا!

– سلامتك يا ماما!

وقلتها بتأنق وتحنن شديدين حرصا منى على أن تصدقنى أمى فردت على بالدعاء لى: بأن يسعدنى الله، وأن تعيش من أجلى! حتى ترى أولادى!

وسكتت وقلبت نظرها فى السقف ورقص على شفتها الذابلة ظل ابتسام ثم قالت وكأنها لا توافق على ما حدث:

– بدرية كانت هنا.

– عال.

– عندى بالنسبة إليها أخبار سارة.

– خير.

– إنها... إنها حامل!

– زادها الله خيرا وبركة.

فسألت وكأنها فطنت إلى شيء ما كان يجب أن ننساه:

– ماذا عملت عند الست جليلة؟

وفى أعماق عينيها بدا كأنها تعرف، أو بدا لى كأنهما عدستان لمنظار جديد يغوص حتى نهاية أغوار النفس فيعرف ما فيها. ووقعت فى ربكة وتذكرت الماضى... قصه الخمسين قرشا التى حجزتها من مرتبى ذات يوم من ورائها، وذهبت بجزء منها إلى امرأة كانت تبيع الهوى. وها هو ذا التاريخ يعود مرة أخرى مكتوبا على ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا كانت الخطة أن أخرج من عند الست جليلة فأذهب لأشترى قميصا لأن أحد القميصين اللذين أملكهما قد انقطع فى بقعة لا تملك أمى سترها من فوق عظمة الترقوة البارزة أكثر من اللزوم فى جسمى والتى تأكل نسيج القمصان كأنها ماء النار. وهأنذا فى هذه الليلة قد تصرفت فى المبلغ، غير أن التصرف جاء بطريقة متطورة تناسب سنى وعقليتى وتفكيرى والوقت الذى أعيش فيه!! علىّ أن أنهى هذه الحالة القائمة بيننا بضربة واحدة. أنكر الوصاية، أو ألغى المعاهدة بكلمة أعلنها. أصرخ فى وجهها قائلا لها: لا تسألينى عن شيء. أعطينى كل الشئون بطينها وأثقالها ودعينى أخطئ فى تصريفها فليس

صوابك يا أماه بأحسن من خطئى!

لكننى نظرت فوجدت امرأة مريضة. ترقد، طويلة هزيلة كأنها عود من القصب... وشىء من شعرها الأبيض ظاهر من تحت المنديل فـوق أذنيها بالضبط. لكن... لا بد أن أقـول لها ردا. نعود للكذب مرة أخرى كأننا صغار؟! ذلك شـىء بغيض لكن متى يكون الكذب مكروهـا؟ طبعا إذا كان هناك مجال للصدق. وهل تركت أمى للصدق مجالا فى معاملاتنا لا بد أن أكذب.

– لم أجدها فى البيت فجلست على النيل أشم هواء الله!

– هـواء الله! (وكأنما لم تعجبها الكلمة. كأنما رأت فيها شـبح التذمر) حسـن. قم فتعش. سخن الرز وابحث فى النملية عن خبز طازج. أوه.. نسـيت.. إن وابور الجاز يحتاج إلى جهد فى إشعاله. أقوم؟!.. أمك لم تعد قادرة على الخدمة يا فؤاد.. إن..

فقاطعتها:

– لا..لا.. لا تتحاملى على نفسـك. سـآكل لقمة والسـلام: أى لقمة. النفس بائتة. لم تعد هناك شهية فالجو حار.

ولمـا دخلت المطبخ وجدت وابور الجـاز كأنه خارج من حريق، وحاولـت إشـعاله فكاد يشـعلنى. فتمتمت: «كل شـىء يحتاج إلى تجديد لكأن أمى تسد الطريق فى وجه تدفق الزمن بكفها المعروفة. لا. لا بد أن يتغير كل شىء ولو لم ترد ذلك»!

وفى المساء التالى ذهبت لأعود الصبى. ألا ترى ذلك واجبا؟!

حملت معى ثلاث قطع من الشيكولاتة وكتابا مصورا وعدة أقلام ملونة وذهبت ووضعت كل هذا بين يديه فضحك كأنه ملك الدنيا، ومن الغريب أننى أنا الآخر أحسست أننى ملكتها فلعنت أبا الريال!!

وكانت الست جليلة والصبية عزيزة واقفتين خلفى تبتسمان فى رضا وسكون. ثم ما لبث الصبيان أن انصرفا إلى الداخل يأكلان ويقرآن ويتناقشان. وظللت أنا جالسا مع الست جليلة.

كانت أكثر رونقا من اليوم الماضى كأن شيئا فيها لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد. وفى مرآة على مبعدة منا رأيت نفسى كذلك أكثر رونقا، كأن شيئًا لا أعرف ما هو كان تالفا ثم تجدد.

كانت جالسة بشق على الكنبة متكئة بكوعها على المسند الخلفى ومتجهة بوجهها إلى. وأخذت تبلع ريقها كأنها تفتش عن كلام وتهز ساقها المدلاة على الأرض. وكنت أعرف أنها تريد أن تشكرنى كما يبدو فى عينيها، فقالت بتردد لطيف:

– أأتكلم؟

فأجبت بلطف:

– لا. لا داعى. إذا كان ما سيقال معروفا فلا داعى للعناء.

فزمت شفتيها والابتسام فى عينيها كأنها تحاول أن تسد نبعا حلوا. ثم قالت:

– هيه... نحاول إذن أن نتكلم عن شيء غير معروف؟!

– موافق.

فسألت بطريقة من قهر فى الجولة الأولى:

– أنت خرجت من الأرض أم نزلت من السماء؟!

– وهل أحزنك ذلك؟!

فزمت شفتيها مرة أخرى وترقرق الابتسام فى عينيها. وبدت صغيرة حلوة ثم قالت:

– بالعكس. كل شيء بالنسبة إلى يعتبر ربحا!

فأيقنت أننى على أبواب تجربة وأن الحياة بدأت تلون لو حتى بأصباغ كثيرة، فقررت ألا أفر وتذكرت قول (فهمى) المحب المصدور: «إن خير علاقة تربطك بالأشياء هى... معرفتك بها» سأسبح إذن مع التيار يا أماه... فانتظرينى حتى أعود!!

قلت بعد أن وضعت رجلا على رجل وخرج من أعماقى إنسان جديد:

– حاولى أن تثقى بى دائما لأننى مستعد أن أمنحك ثقتى.

ففغرت فمها وفتحت عينيها وشردت فى الفضاء واندفع الصبيان نحونا بشكل مفاجئ ليسألانى عن شخصين فى إحدى الصور: «رجل وإمرأة يجلسان عند مدخل غابة وقت الشتاء، والأشجار عارية وفى الأفق تبدو مبانى القرية وعند أقدام هذين الإنسانين حزمة من الحطب جمعا أعوادها فى البرد. لوحة جميلة منقولة كتبوا تحتها

حكاية عن المساكين...».

وخـــرج الصبيـــان بعد أن عرفا مـــن هم المســـاكين!!... ونظرت إليهمـــا الأم وأمرتهما ألا يعودا وأن يعتكفا فى مكان. ثم تكلمنا عن المســـاكين نحن الاثنين، قصصت عليها قصة الأب الذى ترك زوجة وبنتا وولدين رعتهم الأم، حتى صار الأكبر شجرة مثمرة ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى تركهم وانصرف لشـــئونه.«وكأننا يا بدر مـــا رحنا ولا جينا» فلما فجعت الأم فى غرس يديها صادرت أمانى بنتها فى الزواج وأجبرتها على أن تتزوج من لا يوافقها ســـنا ثقافة ولا ميلا ولا تفكيرا ولا أى شىء وهذه هى قصة زينب ولست أدرى لمـــاذا ذكرتها ولمـــاذا قصصتها عليها وظهر التأثر على وجه الســـت جليلة فقالت من فورها:

– هل المساكين لا يلدون إلا مساكين؟! فسارعت أقول:

– ليس ضروريا أبدا.

فضحكت ضحكة من يريد أن يسوق دليلا على صدق ظنه.

– إذن... فاسمع قصتى.

* * *

كان أبوهـــا «منجـــدا» رجلا كثير العيال قليل الكســـب ظل طول حياتنـــا قابعا فى الطبقة الدنيا مـــن العمال. لم يفكر يوما أن يبتكر رسما جديدا لوجه لحاف. كل شىء فيه لا يتغير. يشتغل فى الشتاء نوعا ويظل طول الصيف شبه عاطل. يسب ويلعن، ويسعل من الربو

ويقسم لزوجته وأولاده كل يوم أن التراب الذى تخلل صدره من القطن القذر الذى ندقه بالقوس – لو جمع فى كومة واحدة لعجز الحمار عن نقلها إلى «المقلب».. ولذلك فقد اعتبر نفسه (فريسة). وكان يقول: نعم فريسة افترستنى الصنعة ثم سلمت البقية الباقية منى لهذه الزوجة الملعونة السليطة القليلة الحياء. ولم تكتف هذه الزوجة بما نالته منى بل استدعت شركاء جددا، عزمتهم على البقية الباقية، من البقية الباقية، هؤلاء الشركاء هم أولادها منه البالغ عددهم ثمانية، ستة من البنات واثنان من الذكور. كلهم ملاعين أبناء ملعونة، كانوا ينضمون بلا استثناء إلى صف أمهم فى المعارك اليومية التى تنشب بين الزوجين فى الصباح أو فى المساء.

وكانوا يتكدسون فى حجرتين ينام الكبار فى حجرة وينام الزوجان فى الأخرى مع الصغار الذين لا يدركون – لحداثة سنهم – ما عسى أن يدور فى الغرفة.

ولكره أبيها فى صنعته أقسم ألا يعلمها لأحد من أبنائه، فأحدهما فتح الله عليه لدعاء أمه فتخصص فى تصفيف شعر السيدات لكنه لم يكن يمد أهله بشىء. وعمل الثانى (ترزى) لكن الله ابتلاه بحب الغناء والموسيقى فكان يضيع كل ما يكسب على الآلات الموسيقية وتعلم الدروس. وفى كثير من الليالى كانت شقتهم تموج بأشياء متناقضة تقتل من الضحك، عندما كان هذا الشاب الصغير يجلس فى الصالة يغنى على «العود» بصوته الكريه فى

الوقت الذى يرتفع فيه شجار الأب مع الزوجة أو أحد الأبناء حول اختفاء سيجارة أو قطعة من اللحم أو شىء من النقود.

وكانت الزوجة تطعم هؤلاء الأولاد من دخل زوجها وما تخطفه من أحد أبنائها وتقول لهم حينما تضيق بهم الحال:

– إنكم قوة مخيفة، إننى كحارس السيد قشطة يدخل ذراعه فى فمه ومن المحال أن يشبعه، وفى يوم ما لا بد يفقد ذراعه. ثم تدعو على نفسها بالموت فرفع الزوج الضيق الصدر كفيه إلى السماء كأنه يبتهل إلى الله أن يستجيب.

ويضحك بعض الأولاد ويصخب بعضهم فى الوقت الذى يكون فيه الشاب الحلاق مشغولا بوصف محاسن إحدى اللاتى كن فى الصالون فيكف الثانى عن الغناء ويستمع وهو يعزف.

وعاشت جليلة فى هذا البيت، بين الضجيج والفقر وثلاثة من الكاسبين، كل منهم يجرى فى اتجاه مخالف، والأم تهتف بلا فائدة لذلك كان أى رجل يتقدم لأى فتاة من بناتها لا بد أن يحظى بالقبول. ومن المؤكد أن التساهل فى زواج الأوليات كان أعلى نسبة من التساهل فى زواج من بعدهن، لأنه كلما خف زحامهن خف القلق عليهن، لكن (جليلة) كانت الأولى فلم يشب خطبتها شىء من التدلل. فقد رجع (المنجد) إلى بيته ذات مساء واختلى بزوجته وأخبرها بالموضوع.

كان يشتغل فى بيت رجل يبدو عليه أنه مستور الحال. عاد الرجل من الخارج وجلس إلى جوار (المنجد) يجاذبه أطراف الحديث، وذكرا النساء لما رأيا الفراش الجديد، فجعل كل منهما يقص على الآخر فى نشوة ومرح ما لقيه ليلة عرسه أو ليلة من الليالى. وعندئذ قال رب البيت:

– ولقد ولت الأيام يا صديقى وأصبحت زوجتى كالثوب الذى نحله الغسيل... مريضة مريضة... تشفى يوم الخميس مثلا لتستعد للمرض يوم الجمعة. وضحك الاثنان. وتكلم المنجد عن الجنية التى تسكن شقتهم وعن أن الله تعالى لم يمتحنها مرة بالمرض وتمنى لو أخذ كل واحد منهما حظ الآخر. واستطرد المنجد قائلا: إن عنده سبحة من البنات سبحة مشكلة الحبات: حبة من اليسر، وحبة من الخشب، وحبة من الصدف، وحبة من سن الفيل، وربما كان بينهن ما لا يعرف نوعها!

قال رب البيت:

– ها. ها. إنك رجل خفيف الظل زوجنى إحدى بناتك هل توافق؟

– حرام. أليس لك امرأة؟

– قلنا مريضة. هل تخاف ابنتك أن يكون لها ضرة؟

كانا كأنهما يتسليان عن همومهما بعقد هذه الصفقات. ولم يكن هناك دافع قاهر.. ولو فى الظاهر. وتزوجت جليلة بعد ستة أشهر

وكان طبيعيا أن تنتقل، من فقر إلى فقر، ومن ضيف إلى ضيف، ومن منزل يصخب بأخواتها إلى آخر يصخب بأولاد ضرتها...

وانقسم البيت الجديد إلى بيتين بمرور الزمن بعد أن أنجبت الزوجة طفلة سمتها (عزيزة) وأصبحت تلقى من أبناء زوجها مضايقات لا تحصى. ثم ضاقت ذات يد الرجل بعد أن أنجبت ابنه «نبيل» واتسمت أعماله بالقسوة بالنسبة لزوجته الجديدة، كأنما كانت هى سر التحول. وبدأت أعماله تتسم بالغموض وخيل إليها أن كسبا غير مشروع كان يتسرب ليد زوجها أحيانا.

كان «محصلا» فى إحدى الشركات. وفى ليلة من الليالى دخل فى وقت متأخر على زوجته وأيقظها. وكان يبدو أنه غير طبيعى كمن يحاول أن يخفى فى نفسه أمرا. وبعد وقت أوى الزوجان إلى الفراش. وقال لها قبل أن ينام إنه مسافر غدا فى إحدى عربات الشركة، وسيغيب يومين فى هذه الرحلة للتحصيل من الأقاليم.

ونامت ليلتئذ وشىء من الخوف يتسرب إلى قلبها. ونظرت إلى وجه زوجها النائم فوقفت نظراتها عند فكه العريض وشفتيه الغليظتين المطبقتين، ولم تدر لماذا تذكرت – بعد أن وقع بصرها على عنقه – قصة الزوج الذى وجدوه مشنوقا فى الفراش ودخلت زوجته فى صميم المأساة كما نشر فى الجرائد.

وانقضى يومان على غياب الزوج فى الأقاليم، وفى اليوم الثالث جاءها النبأ الفاجع، وهو أن عربة الشركة انحدرت بزوجها ومعه

السائق إلى الترعة الموازية للطريق أثناء عودتهما إلى العاصمة، وقد عثر على جثة الزوج فى السيارة. أما جثة السائق فلم يعثر لها على أثر.

ثــم ظهر بعد ذلك أن الوفــاة لم تكن من الغرق لكنه غرق بعد أن خنق تماما. وبقيت دوائر البوليس مشغولة بظهور السائق فقد رجح لديهم أنه هو الذى ارتكب الجريمة وأن قطاع الطرق لا يخنقون.

وعبثا حاولوا العثور عليه، ودبت الشــكوك إلى نفوس المسئولين فى الشركة فى أن المحصل والسائق اختلفا كما يختلف الشريكان، وأن القــوى منهما قتل الآخر واســتولى على ألفــين من الجنيهات وهرب. ورجح الذين يطالبون الشــركة بالتعويض أن السائق جرفه التيار كما جرف حقيبة النقود...

وتعقــدت القضية. لكن ذلك كان على حســاب الطفلين والزوجة الست جليلة، التى باتت تندب أيام بؤس قضتها فى أحضان أبويها بــين أم تصرخ وأب يصيح بينما أخوهــا يعزف على العود ويغنى، وبنتــان من أخواتها تضــرب إحداهما الأخرى، فقــد كان كل هذا بالنسبة لحاضرها فقرا جميلا بلا دموع؟...

قلت للست جليلة عندما وصلت إلى هذا الحد من قصتها:

– أوه... إن قلبى مفعم بالحزن وقد زدت من الحمولة.

– هل تألمت... أنا لا أحب أن أكون سببا لآلامك.

ونظرت إلى وبدأت سحنتها تتغير بطريقة غير مألوفة لدى، لم أجربها من قبل، كان هناك رغبات ودوافع وشجاعة وجبن ومتناقضات كثيرة تطفو على وجهها حتى خيل إلى – بعد أن تدانينا فلم يفصل بيننا إلا المسند الصغير للكنبة – أن جيدها لم يعد قادرا على حمل رأسها الذى مال فجأة فى اتجاه كتفها المدورة. وكانت دبدبة أرجل الصبيين على السطح تنزل إلينا. أما أنا فقد ظللت جامدا بحكم الخوف وقلة التجربة ثم تذكرت أننى صممت أن أسبح مع التيار ولا أهرب من التجارب حتى لا تطرد حياتى على نمطها الممل. ومع ذلك فلم أستطع أن أصنع شيئا وهبط صمت خيل إلى أنه طويل. وحاول كل أن يحيد ببصره عن الآخر وأخيرا قالت لى:

– هل... أنا... هل.. سببت لك ألما؟ إنك غير مرتاح فى جلستك هذه...

ورفعت المسند من بيننا فوضعته خلف ظهرى بينى وبين المسند الخلفى الكبير. فأصبحت المسافة خالية من الحواجز. ووقع نفسها على وجهى وهى تميل بهذه الحركة فى اللحظة التى كانت تقول فيها: لماذا لا ترتاح؟... هل سببت لك ألما؟؟

وأتاحت لى بحذق ومهارة ودربة لا نظير لها أن آخذها بين ذراعى وأقبلها. ودبدبة الصبيين فوق رأسينا توحى بأن الوقت متسع لنا. لكن الست جليلة فصلت بيننا بسرعة، فرأيت دمعتين

تجريان على خدها وندما واضحا تبرق به عيناها. وأعادت المسند الصغير حيث كان وهى تهمس بصوت مبحوح:

– ماذا جرى؟ ماذا عملنا؟؟ لا بد أن نقف عند هذا الحد؟!

وأخذت تبكى. فعدت طفلا أكاد أبكى.. ثم تسللت خارجا من البيت.

* * *

١٦

«تأخــرت يا بنى! لماذا تتأخر هكذا كل ليلة؟! البيت خال على والصداع... آه...».

بهذا استقبلتنى أمى فى هذه الليلة كذلك. فعدت أصرخ فيها:

– كنت أشم هواء الله!!.. هواء الله!!

فاستخذت فى فراشها ساكنة وقبضت على جبينها بين أصبعين ثم خرجت فخلعت ثيابى وعدت إليها أكثر هدوءا.

– أنت عصبى يا فؤاد.. كأن أحدا أغضبك فى الخارج.

فأجبتها بترفق لأننى أشفقت عليها:

– لا مطلقا يا ماما.. فكرى فى صحتك أنت.

– لم تعد هناك صحة.. رشــدى وبدريــة كانا هنا وانتظرا حتى يرياك فلما غبت خرجا. إن صحتها ســيئة. كانت تغسل لنا ثيابنا فتركت الغسيل وتقيأت مرتين.. الوحم.. ليساعدها الله.. متى يارب أرى زوجة ابنى تترك الغسيل هى الأخرى وتتقيأ؟

فضحكت مغيظا فى وقت واحد:

– ليس هناك بعيد على الله؟

فنظرت فى شك ثم قالت:

– إن زواجك ضرورة بالنسبة إلى أنا حتى بعد أن صرت مريضة. أنا لا أثق فى الخاطبات. وجيراننا أنت تعرف بناتهم. (وتنهدت أمى) حقيقة أنها صارت مشكلة. أيام.. أين ذهبت زكية، وعنايات، وألفت. وحتى الدميمة السوداء التى كان اسمها فتحية؟.. كل هؤلاء كانت عيونهن عليك.. أصبحن أمهات.. سبحانك يا رب.. وأين سميرة؟ وبدرية بناتى؟ آه يا بنى.. ما كان ينبغى أن تسير الأمور هكذا.. سيتهمنى الناس بأن هذا من تدبيرى. أنا مخلصة ويعلم الله. اسمع... ماذا قالت لك الست جليلة؟ اذهب إليها غدا واحصل منها على رد نهائى فأنت قد رقيت والحمد لله. وعلى كل حال فقد عرفت أن زميلتى التى تذهب إلى طبيب الأسنان عندها بنات. لا بد أن تتزوج قبل أن أموت.

وكنت مشغولا عنها، كنت لا أزال فى غمرة الحوادث التى مرت بى فى الجيزة، وتذكرت تاريخ ميلادى وأنا خارج من حجرة أمى فى طريقى إلى السطوح لألم الغسيل الذى نشرته بدرية وانصرفت. ونحن نذكر عدد سنوات عمرنا فى ساعات الخطر أو ساعات اللذة. ولمع الشيب على فودى وأنا أنظر فى مرآة الصالة وكأنما رأيته لأول مرة، وكان الجو حارا. وقطع الغسيل على الحبال ساكنة لا تكاد تهتز، والهدوء شامل يدفع إلى التفكير. وديك عجوز وثلاث دجاجات يقرقرن فى الحظيرة بين الفينة والفينة. وأخذت أغدو وأروح على السطوح وأنظر إلى العمارة التى

قامت خلفنا فبدا ظهرها كأنه جبل متاخم. ثم توقفت واتكأت على السور وفطنت إلى أن أمى ترقد فى الحجرة التى أقف فوق سقفها وتحسب الآن مقدرات مستقبلى فى قلق وخوف. وأن الست جليلة فى الجيزة تسترجع ما جرى بيننا فى أسف بالغ. بين هاتين المرأتين يترنح بندول الساعة التى تمثل سنوات شبابى، فتنهدت ثم ذهبت لألم الغسيل.

على أننى فى الصباح رأيت الأمور أكثر تحسنا مما كانت عليه فى الليل، خصوصا عندما تذكرت أن قلبا- أى قلب - قد خفق بحبى ألا يوجد فى الدنيا سوى الأمهات؟! ثم لماذا هذا كله؟ هل يهبنا آباؤنا الحياة من أجل أنفسهم؟ أو من أجلنا نحن، أو بالنصف بيننا وبينهم؟ فى هذه القضية وجهان مقبولان، أما الثالث فهو غير مقبول، فلا داعى لهبة يستردها أصحابها مرة أخرى بحيث لا تترك إلا الحسرة.

وفى حركة الترقيات الأخيرة انتقل رئيس المكتب وجاءنا رئيس جديد. وأخذت أنا الدرجة السابعة وأصبحت موظفا مرموقا! وقبل عم سيد يدى فى ذلك اليوم وطلب منى الحلاوة وحثنى على الزواج لأتقى الله فى النصف الثانى من دينى!

وبعد ترقيتى إلى الدرجة السابعة ومجىء الأستاذ بدران رئيسا للمكتب وظهور الست جليلة واستتباب العلاقة بينى وبين هذين الإنسانين.

– قــررت ذات ليلــة وأنا مضطجــع فى الفــراش والنور خافت فى الصالة والليل ساكن فى الضاحية وكل كائن يتنفس بارتياح حتى صخــور الجبل – قررت: أن الحياة اليوم يمكن أن تعاش. نعم. لقد أصبح فيها شىء!!

وكنــت كلما هممت أن أذهب إليها أحســت بخجل وتقهقرت إلى الوراء، وأمى تلح فى الذهاب كأن العروســة جالسة على الباب. وذات صبــاح وأنا جالس إلى جوار الأســتاذ بدران فى المكتب جعل يحدثنــى بصوته الخافــت اللين فى فترة من فــترات الهدوء، عن ينبــوع حب تفجر فى روحه أيام الشــباب ثم مــا لبث أن انطمس. ويوصينى الأســتاذ بدران ألا أنام والحوادث مســتيقظة على شاشة الســينما، بمعنى ألا أدخل إلى الســينما لأستغرق فى النوم حتى لا يضحــك منى الناس. يعنــى أنه يجب أن أتمتــع بالومضة الإلهية الكبرى التى تدب فى حياة كل كائن... بالشباب.

كنا فــى مثل هذا الحديث حين انفرج الباب عن وجه عم ســيد فرأيت على ملامحــه أن أحدا بانتظارى فخرجت أكاد أتعثر! فإذا بالست جليلة عند الباب الخارجى للإدارة.

وبعد أن سلمت لم يجد أحدنا داعيا لأن يناقش الآخر فى شىء. إن مجرد اللقاء يعنى تمام التفاهم والعفو، وربما الاستعداد لتكرير الأخطاء. وكان لا بد أن نتحرك لنغيب عن أعين الموظفين والداخلين والخارجين. فســرنا فى غير اتجاه (لاظوغلى) إن كنت تذكره، لأن عوامل قوية فى باطنى كانت تهيب بى أنه يجب أن أغير اتجاهى.

أمـا حالتها فى هـذا اليوم فقد كانت حالـة المرأة حين تصل إلى (قرار) معين رضيت عنه هى نفسها بصرف النظر عن كلام الناس. وفى هذه الأحوال تلبس المـرأة ثوبين فى وقت واحد، ثوب النمرة التى لا تغلب، وثوب الهرة التى تريد الدفء، فتبدو غالبة مغلوبة وقاهرة مقهورة.

ورأيت السـت جليلة كذلك قد لبسـت قبل خروجها للقائى ما تعتقد أنها سـترضينى به. واجتهدت فى ذلك اجتهاد الفقير يقدم أطيـب ما لديـه للزائر الكبـير فيثير فى نفسـه الخجل والحرج. وخفـق قلبى من أجلها خفقات قلقة حنونا. ورأيت الرحمة والحب والأغـراض والشـهوات كلها معبأة فى جعبة نفسـى فاسـتكبرت مصيبة الإنسان.

وتذكرت وأنا سـائر إلى جوارها فى صمت قولها ذات مساء: «إن المسـاكين لا يلدون إلا مساكين». ثم نظرت إلى صورتى وصورتها فى إطار الحوادث فرأيت أننا اثنان لم تخل قصة حبنا مما يثير الرثاء، لأننى محروم يجرى إلى ذروة الشباب، وهى محرومة استنفدت فى سبيل الرزق كل وسيلة مشروعة. فإذا كنا حبيبين فإن (إله الحب) لم يرمنا بسهم من الذهب كما تقول الأساطير، بل ربطنا من أعناقنا بحبل من الليف! وسحبتنى الست جليلة من أفكارى بقولها بصوت بطىء ونظرة بطيئة:

– هل سببت لك ألما؟

فسارعت أعلن:

– أنت؟ بالعكس.. ربما أكون أنا الذى قد آلمتك!

وابتسمت فى حذر ونظراتى تذكرها بالموضوع، فأطرقت وقالت وهى سائرة:

– هل نسيت (الأمانة) التى طلبتها منى؟. طبعا أصبحت تعرف أنك قادر على التصرف فى كل ما أملك!

فأعرضت عن الجواب وسألتها قائلا:

– كيف حال نبيل وحال عزيزة؟

– آه... خلقوا لى صداعا شديدا من كثرة سؤالهم عنك.(ثم استطردت كمن فطن إلى أنه نسى شيئا) لكن.. قل لى: ولماذا أحبك الصغار كذلك؟ الناس قد يخلقون حول حب الكبار أشياء ومنافع، فماذا يقولون فى حب الصغار؟

– وأنا أحبهم كذلك.

فقالت تعاتبنى:

– لماذا إذن لا تأتى إليهم. كلنا نحبك. صدقنى.

قلت بغير حماسة لكن بصدق ولعلى ذكرت أمى:

– وأنا أحبكم... لكن. اذكرى أن لى أما وحيدة فى البيت تقلق علىّ إذا تأخرت عنها، فضلا على أنها محتاجة إلىّ.

فظللتها سحابة حزن خفيف.

– تعال الليلة... ولن تتأخر عندنا. ينبغى أن أتركك لترجع إلى مكتبك. أأنتظرك؟!

فهززت رأسى موافقا لأننى لم أجد ريقى. وسمعتها تلقى على التحية وتستدير لتعود، فظللت واقفا أراقب قامتها الضئيلة وهى تتأود وتلتفت مرة كلما خطت عشرين خطوة، حتى كادت تغيب عن عينى.

وقبل أن أدخل المكتب قابلنى أحد الموظفين فى الصالة ونظر إلى بخبث وحيانى خمس مرات: «ازيك، سلامات» وكفه تظلل عينيه كأنه يواريهما من الشمس، فأيقنت أنه رآنى. وتركته ودخلت حيث جلست إلى جوار الأستاذ بدران، كأن الأشياء المشروعة وغير المشروعة تريد دعامات من الخارج تستعيرها من الناس لينهض بناؤها فى نفوسنا قلت:

– وبعد يا أستاذ... هل كان حبك فى صدر شبابك ينبوعا محرما؟ لا تؤاخذنى فى هذا السؤال!

فأجاب فى حنكة الشيوخ:

– نحن لا نختار التجارب. ولكن التجارب هى التى تختارنا. اسمع يا بنى يا فؤاد... وددت لو كان عندى بنات فأزوجك إحداهن. أنت ولد ناصع طيب مستقيم. التجربة، سيئة أو حسنة، هى التى تختارنا لتقع علينا كما يختار الغراب أو البلبل قمة الشجرة. وبعد ذلك قل، يا بخت، يا نصيب. فقد تكون شجرة يقع عليها غراب وقد تكون شجرة يقع عليها بلبل. وفى اليوم الذى تختار فيه الأشجار نوع الطيور التى تحط عليها أو تعشش فيها، نكون نحن قادرين على اختيار نوع معين من التجارب...

ورنت ضحكة فى أحد أركان المكتب وهتف صاحبها يقول:

– تصوروا أننى ظللت ساعة عاجزا عن أن أجد موطن الخطأ فى الحسبة، ثم اكتشفت أننى أقول بطريقة ميكانكية: ٨ × ٨ بـ ١٦!!

فسحبنا من عالمنا إلى الأرقام. واستأنف كل منا عمله من النقطة التى توقف عندها.

* * *

وفى المساء نزلت أمى إلى العيادة وذهبت أنا إلى بيت الست جليلة ولقينى الصغيران بحب حقيقى وتعلق الصبى بذراعى وأكد لى أنه برئ من لسعة العقرب، وأنه لم يعد يلعب عند المخرن الملعون. ثم جريا نحو الداخل ورجعا وفى يد كل منهما طبق استنبت فيه قمحا وحلبة على قطعة من القطن، وجعلا يشرحان لى طريقة الاستنبات باعتزاز من وفق إلى اكتشاف عظيم، ونظرت إلى الأم بعين نصف مغمضة وعلى شفتها التى لا تخلو من الفتنة ابتسامة مؤكدة تقول بها: هل صدقت أنهم يحبونك؟

كان فينا من يستنبت الحَب وكان فينا من يستنبت الحُب.

فلما خلا بنا المكان رجعنا إلى الماضى فأكملت لى قصة حياتها بقليل من الإسهاب: وجدت نفسها بعد فقد زوجها امرأة لا سند لها، ومن أسرة كل يد فيها مشغولة بفم واحد، وذهبت إلى الشركة تطلب مكافأة أو تعويضا، فأخبروها أن الشكوك تحوم حول زوجها

فرجعت دامعة العين. ومن الطبيعى أن يكون صاحب البيت قد انتظر وانتظر، والبقال لم يعد يعطيهم شيئا وأنهم أصبحوا مهددين بالجوع.

وقبعت فى بيتها قليلة الحيلة تنتظر مصيرها المحتوم. ثم تخففت من الأثاث وسكنت فى حجرة، ثم جمع لها فريق من أبناء الحلال من الموظفين والعمال فى الشركة مبلغا لا بأس به عن طريق التبرع، ثم حكم لها القضاء بالتعويض بعد أن ثبت أن السائق لم يغرق وأن ثراء غير مناسب قد ظهر عليه.

واستأجرت هذا المسكن الصغير الرخيص المستقل، لتكون بعيدة عن الناس الذين لم يرحمها منهم أحد أيام جوعها. ثم بدأت تستغل نقودها بالفائدة.

وسكتت لكنه خيل إلى أنها لا تزال تخفى شيئا. ألم يعترض طريقها ذئب أيام كانت محتاجة؟ إن الجمال والحاجة أسوأ شيئين تقف بينهما امرأة، والجميلة المحتاجة يعطيها الناس باسم الرحمة ليأخذوا باسم الفتنة حتى يحولوها إلى حطام.

وهممت أن أسالها لكننى لم أجد نفسى صاحب حق. ثم نفضت لها موجز قصتى، وأعربت لها عن مخاوفى من أن تموت أمى فجأة فأحس أن البيت، لا، بل الدنيا أصبحت خالية على، وأكدت لها أن حزنى عليها سيقتلنى بعد أن تموت.

فألفيت الست جليلة تكلمنى عن الحب... عن ألوانه التى يزحزح

بعضها بعضا، ويحل شيء منها مكان الآخر، فقالت وهى تتمطى:

– سيؤذيك الحزن يا حبيبى إذا تركتك أمك على هذا الحال (وتثاءبت وتنهدت ثم قالت بلين شديد): تزوج.. ستنسيك الزوجة خصوصا إذا كانت ذات مأساة فقد أى إنسان. احذر أن ينطفئ عليك النور فجأة. آه.. عندما حدث لى ذلك تخبطت فى الظلام!!

فنظرت نحو الباب لأحيد عن نظراتها وقلت:

– كنت أريد أن أتزوج على طريقتى الخاصة.

– ماذا تعنى؟

– أعنى أننى كنت أحب أن أتزوج على حب.

فسألت باهتمام لم تستطع إخفاءه:

– هل أفهم من ذلك أنك لم تحب قبل... أ... قبل اليوم؟!

– لك أن تفهى ما تشائين.

فهمست بخوف:

– وأنا؟!

وكانت فى مكانها من الكنبة جالسة بشق متجهة نحوى وكوعها على المسند الخلفى والمسند الصغير بينى وبينها، وأغنية عاطفية عذبة جديدة حارة تأتى من راديو عند أحد الجيران. والصبيان يكسران شيئا فى المطبخ، وقطة عسلية اللون تقف عند العتبة. فسألتها بدورى:

– وأنت؟!

ثم تنهدت أنا ونظرت إلى المسند، فقالت بعينيها: ارفعه... ارفعه بيدك. النساء لا يرفعن الستر إلا أول مرة...

«آه.. لا أزال أذكرها.. لقد علمتنى الكثير!!».

* * *

١٧

وحتى هذه اللحظة لم نشتبك فى التجربة النهائية...

وأعلنت أمى أن (عواطف) بنت زميلتها أعجبتها، فقد خرجت أمى من العيادة وذهبت وزارتهم. ثم سكتت وعادت تسألنى: وهل قابلت الست جليلة؟ فأخبرتها أنها على استعداد لأن تعطينا، وأنه من الخير أن نسحب المبلغ منها قبل تقديم «الشبكة» بأيام فذلك أضمن لأنه دين، فوافقت أمى وعادت تصف لى حال هذه الأسرة:

– من الغريب أن ظاهرهم غير باطنهم تدل ملابسهم على أنهم أغنياء ويدل بيتهم على أنهم عاديون. فى حجرة الصالون أثاث قديم الطراز.. وحتى قدمه لا يدل على العراقة. وفى أحد الأركان أزهار من الورق الرخيص أتلفتها أشعة الشمس. حال غريب لكن بنتهم جميلة ورب الأسرة (صائغ) غير معروف. أما العروسة فهى البنت الوحيدة بين أربعة من الصبيان يتعلمون كلهم. والأمر أمرك يا بنى، وهأنذا قد خلصت ذمتى!

ولم يكن يخفى على وهى تكلمنى أن قلبها خال من الحماسة. وكنت أنا فى هذه الفترة مشغولا (بكشف) جديد. ولم تكن الحياة فراغا كما كانت من قبل، فقد علمنى الأستاذ بدران أشياء لم أكن

أعلمهـا وفتح لى النوافذ على الهواء الطلق. زرته فى بيته الفقير – أو أقول المتوسط – فوجدته قد أعطى لكل مرفق جزءا من الدخل. ميزانية مرتبـة بطريقة تدعو إلى الإعجـاب، لأن البيت جزء من الدولة (كما قال وهو يبتسـم) وقد اختار الأسـتاذ نهاية أحـد الممرات وأقام فيه حاجزا من الخشـب كأنـه (برفان) فتحولت الزاويـة إلى ركن هادئ وضع فيه دولابين للكتب ومصباحا وكرسـيا مريحا. وورقة من القطن المعقم! كان يحولها إلى سدادات لأذنه إذا ارتفع الضجيج فى البيت.

وقال لى هذا الصديق: إن الأسف الشديد الذى لحقه والخلل الذى أصاب حياته هو زواجه الباكر.

وقهقه وهز رأسه فى عسر كأنما يثقله شىء:

«كان مـن الجائـز جدا أن أكون فى غير هـذا الموضع لو أن أصفاد الأسرة لم توضع فى رجلى. كان من الممكن أن أسافر إلى أوربا فأتعلم أى شىء أسـعد به نفسى وأسعد به الناس. كل الحِرف هناك قائمة على أساس. لو أننى عدت بشهادة فى تفسير الأحلام أو إخراج البقع من الملابس لكان حالى فى المجتمع أرقى من ذلك بكثير».

من أجل ذلك لم تر أمى تحمسـا منى كما كانت تتوقع. فسألتنى ما إذا كان شـىء قد طرأ على حياتى؟ وأطرقت تنظر نحو كفيها فى حجرها:

– إننى يا بنى أخاف عليك!

قلت بطريقة من يريد أن يخفف خطرا:

– حتـــى بعد هذه الســـن؟!.. أوه.. إننى فى الثالثة والثلاثين يا ماما.

– أعـــرف وذلك ما يؤلمنى. على أننـــى أراك أكثر مرحا وتفتحا. وخيل إلى أن حياتك أصبحت ترضيك. تمام.

وجاءت أم (عواطف) ترد لنا الزيارة فرأيت امرأة كثيرة الحركة شـــديدة التطلع. ألبســـها زوجها قبل أن تجىء إلينا نصف الذهب الذى فى دكانه، فظهرت بشـــكل قبيح. وكانت أمى تحاول جاهدة فـــى إكرامها، ولو أن قلقا فى قرارة نفســـها كان يرعش كفيها وهى تقدم لها الشـــربات. وتذكـــرت – وأنا جالس بـــين المرأتين – أيام فاطمة هانم ولياليها ونزوات بنتها زينب... فخيل إلى أننى الحجر الذى يلمسه الحجاج ثم ينصرفون.

وتكلمـــت الضيفة كلاما كثيرا فلم تـــدع لأحدنا مجالا، وتكلمت بإمارة وســـلطان. وكانت تنظر إلى الغوايش وتعدها بعينها. فى كل ذراع (دستة) كأنها عروس النيل. ونظراتها تذيبنى وتكاد تزحلق أمى من على البلاط.

وقالت وهى خارجة ونحن نودعها إلى الباب:

– تعالـــوا لزيارتنا.. لا بد من الغداء عندنا ذات يوم... أنا يا أم فؤاد أجيد طبخ الكشك بالدجاج!

ونظرت إلى كفيهـــا الناصعتين تبدى إعجابها بهما. ولم تر أمى فى ذلك فألا حسنا فقد قالت لى بعد انصرافها وكأنها تمازحنى:

– انظـر.. عندما تفقدنى يا فؤاد فلا تحزن.. سـتجد كفين أكثر نظافة.. تجيدان طبخ الكشك بالدجاج!

فهززت كتفى ومططت شفتى.

* * *

ورأيت العشاق على النهر وأنا فى طريقى إلى الجيزة أكثر رونقا وجمـالا، ليس هـذا بالضبط ما أريد أن أقوله، بـل كانوا فى هيئة مألوفة يؤدون عملا إذا توقف حدث خلل أو تعطل أو شلل فى جهاز الحياة. والماء تحت الجسـر كأنه قهوة والنـاس مجتمعون فى كل بقعة على الشاطئ مزدحمون تحت الحر والأنوار.

وكنت علـى موعد معها. وكأنما كانت بانتظارى على مقربة من الباب، فقد فتحت فى اللحظة التى لمسـت فيها الخشـب. وكانت قـد أوحـت لى أن أجىء من طريق خلفى ما دمنا سـنكثر من اللقاء فألف حول (الجراج) والمخـزن. وإن كان الطريق مظلما فالحى كله يتمتـع بالنور. ولأول مـرة فى حياتى ذقت لذة التعثر فى سـبيل القلب وكنت ألقى ببصرى على الأبنية الكبيرة الموحشة الجاثمة فى الظـلام فتحس روحى بخوف يخالطه خوف آخر لذيذ.. خوف من المجهول الذى أسعى إليه.

وعندمـا مررت على باب مخزن الخـرق والورق ذكرت العقرب التى لسعت (نبيل) والليلة الأولى التى جلست فيها حقيقة إلى جوار امرأة وأنفاسنا التى اختلطت على وجه الصبى.. وبقية القصة!

وعندما فتحت الباب بدت أنها تصغرنى بعشر سنوات. وكان الجو شديد الحرارة. فلبست ثوبا قصير الأكمام يبدو منه إبطها إذا رفعت ذراعها.. وكلامها البطىء كان متحيرا كالماء الراكد يعبث به الهواء ولفتاتها البطيئة كأنما يخالطها النوم. والبيت ساكن.. والهرة العسلية ممدودة على الكنبة فى المدخل كأنما نامت وهى تتمطى. ومن الداخل نحو المطبخ فاحت رائحة «عود» طيب تكاد لا تغلب على نكهة «التقلية». على أن الرائحة التى كانت ساطعة فوق كل ذلك هى رائحة الأرواح حين يعذبها القلق فتجد نفسها مدفوعة إلى عمل ما يسميه الناس. «رذيلة».

ودخلنا فجلسنا حيث تعودنا. وتحير كل منا وهو يختار الكلام وصممت أنا على أن ألوذ بالصمت حتى تتكلم هى. فقالت بشبه خوف وهى تحمل رأسها على كفها وكوعها مرتكز على المسند الخلفى:

– كيف ترى صحتى؟

– حسنة.

فاستطردت بنبرة لا تتغير. خافتة رتيبة تستدرجنى بها إلى غاية:

– صحيح؟!

– صحيح!

– هذه هى أول مرة تكذب فيها على!

– لماذا؟!

– لأننى أشعر أن صحتى سيئة، إننى أعرف صحتى من لونى.. إنه يميل إلى السمرة عندما ينقص وزنى.

– وهل نقص وزنك؟

– كثيرا.

– وهل لذلك سبب واضح؟

– قلــة النوم. اسمــع. أريد أن أتفق معك على شــىء.. هو أننى مســئولة أمامك وأنت غير مسئول أمامى. وافقت؟ عال.كما أريد أن أقول شيئا آخر هو...

– لماذا سكت؟

– ذكرت نبيل. وعزيزة. ليتنى ما تركتهما يذهبان. بدأت أقلق عليهما.

– إلى أين ذهبا؟

– إلى الاحتفاء بوفاء النيل.

– الناس هناك كثيرون فلا تخافى. لنعد إلى الموضوع.

– نعم. كل شىء أقدمه إليك لا أقصد به إلا إسعادك.

فنظرت نحو الأرض، وأنا أذكر قول الأستاذ بدران: «إن التجارب هى التى تختارنا كما تختار الطيور ذوائب الشجر» ثم أقبلت عليها بوجهى ورفعت المســند الصغير من بيننا وأخذتها بين أحصانى.. كانــت لا تبغــى إلا رضاى، فقد رأيتها تمــرغ وجهها فى حجرى

وتقبض على كفى فى تحبب يكاد يكون عبادة، ثم نهضت فجأة كأنها أوجست خوفا أو سمعت صوتا فاضطربت بدورى فأمسكتنى من ساعدى بيدها الصغيرة وهمست بى :

– من الأفضل أن ننتقل إلى مكان آخر!

وعبرنا إلى حجرة لم أدخلها من قبل.. وقيمة الأماكن منزوعة من الأعمال التى تؤدى فيها. فأحسست أننى على أبواب العالم الذى تحدثوا عنه. عالم المرأة المهيب الرائع. وقفت على بابه ثمانية عشر عاما أرقب نوره وأشم عطره فى تردد وخوف وصمت. حتى أمسكت هذه المرأة بذراعى ودفعتنى برفق وشفقة وحب لا يسخر من الجهالات. وظلت تؤكد لى لمدة طويلة أنها تفعل ذلك من أجلى أنا، بدليل أنه إذا رأيت فى قتلها لذة فإنها ستسلم روحها ليدى!

وعند انصرافى قابلنى على الباب نبيل وعزيزة. وتعلق الصبى بذراعى وطلب منى أن أدخل، وشعرت بشىء من الخجل، فلم أطق أن أرفع بصرى إلى الأم. هناك ملذات تقوم على الضحايا كما تزرع الأزهار فوق المقابر. لكننى بعد أن ابتعدت لم أعد أذكر إلا النشوة. والمرأة التى قالت لى ذات مساء وأنا خارج من عندها أجر ذيول الخيبة: «سلم على ماما» وهأنذا أعيش حتى أراهن ألوانا.. كالخمر!! أليست جليلة تسرق العقل بسهولة. لكن.. أليس من الجائز أن تحولنى إلى سكير؟! ماذا يحدث لو أنها دخلت فى دمى فلم أستطع أن أعيش بدونها؟!

وعندما هبت النسمة الشمالية على وجهى فى ناصية الشارع المضىء نسيت هذه الأفكار. وذكرت شيئين اثنين فحسب: أحدهما أنه لا بد أن أسبح مع التيار وأدع التجارب تسقط على. والثانى أمى التى تجلس الآن بانتظارى. وربما كانت متعبة لا تستطيع القيام. ومحتاجة إلى لأناولها شيئا.

فهتفت بحنان: أماه.

* * *

١٨

وأحســت أمى أننى غير ثائر – فتناولت موضوع زواجى بتمهل وهدوء.. وكلما أحسست هما أو فرحا ذهبت إلى الست جليلة لأنثره بين يديها ثم أخرج خالى البال كيوم ولدتنى أمى!..

كانت ذكية العينين غير واســعة الثقافة أشــبه بالشراع تمتلئ برغباتى وتندفع مع أهوائى حتى تريحنى. وبعد ذلك ربما سخرت منى.. أحسســت فى عشــرتى لها أننى أقرأ كتابا مفيدا كتب بخط يــد ردىء، فإذا حللت لغز الخط انتشــيت بحــلاوة المعنى فهللت له وصفقت. ولذلك كنت أقبلها خمســا كلما اكتشــفت فيها خصلة تعجبنى..

وكانــت تقول لى: يــا حبيبى – أحيانا – ويــا أخى – كثيرا – ويا بنى إذا كانت تدلى إلىّ بنصيحة..

وكنت ألتقى بها فى الخارج فأشــترى لها – بنقودها – الملابس لأنتقى الألوان التى تروق عينى أنا...

وبدأت أبسط عليها شيئا من ظلالى فاقترحت أن تدخل (عزيزة) أحد المستشــفيات فإن عظمهــا لّين ومن الجائــز أن تنصلح رجلها العرجــاء: «حرام. غدا تكون فتاة يا ســيدتى فــلا تتركيها هكذا» فأجابت بــأن ذلك جال فى خاطرها لكنها خافت أن تطبب الزجاج

فيصيبه الكسر. ثم أذعنت لرغباتى.. كما تذعن دائما.. «آه... لقد وجدت التى تقول: (حاضر) وتعطى ولا تأخذ فهربت إليها».

وخرجت عزيزة من المستشفى أحسن حالا، ثم مشت نحو التحسن ولم يعد صبيان الحارة يقولون لها: يا عرجاء. فعاشوا يذكرون لى هذا الجميل.

أما نبيل فكان يحبنى كأنه ابنى. وكنت أهدى إليه الكتب وأعلمه بعض الأحيان.

وأما الكمبيالات الشهرية فقد ظلت كما هى لكنها غلبتنى فى شىء واحد، وهو أنها جعلت المبلغ بلا أرباح. واجتهدت أنا أن أؤدى إليها ما أشاء وما يرضينى لكن عن طريق الهدايا.

ولم يعد عم سيد يذهب إلى بيتها. قطعت العلاقة بينه وبينها عمدا بعد أن تعرفت علىّ ليبقى ستار معقول مسدلا على ما بيننا.

ولم أعد أعبأ كثيرا بالنهب والسلب الذى ترتكبه بدرية فى بيتنا نظير خدمات من الممكن أن يؤديها الغرباء بأقل ثمن. وكان زوجها رشدى يتبعها فى بيتنا كأنه ظل، ولم أدخل عليه إلا وجدته يأكل..

وشعرت أمى أننى أحب. أدركت أن لى عشيقة. لكنها آثرت الصمت. والأستاذ بدران يهدينى إلى مواطن النور ويشرح لى معانى الجمال ويحدثنى عما يقرأ ويصف لى تجارب شبابه. كان يدفعنى بالمهماز كأننى حصان. حتى بدأت أقرأ وأفهم وأتمثل تجارب الناس (وتحول طبعى الهادئ إلى شاعرية كأنما ذهبت عنه الغفوة ودخلته

الحياة دون أن يفقد سكونه الفطرى. وسألت جليلة لماذا تحبنى هى؟ ألم تصادف قبل ذلك إنسانا يحمل نفس المزايا؟ فابتسمت فى خوف وقالت: هذه أول علامات التغير!

ولم تستطع أن تقدم الدليل على صدق نظريتها.

وذهبت مع أمى فزرنا أم عواطف ورأينا العروسة إتماما للمراسيم وعدت أنا فطلبت من أمى مهلة.

ثم حدث فى نطاق الأسرة شىء غريب. هو أن بدرية ولدت توأما ذكرا وأنثى.

كان ذلك فى بيتنا نحن وبين يدى أمى. فخرجت السيدة المسنة العجوز التى تكاد تكون مثقوبة الشدقين والعرق يتصبب من جسمها، وكان (رشدى) جالسا يقزقز (لبا) بحركة آلية صرف ويهز خديه الكبيرين، ورفع وجهه إلى السماء وشكر الله وداعبه مبتهلا أن يرزق العروسة بعريس والعريس بعروسة. ونظر إلى بجنب عينه وكأنه يعنينى.

لبست ثيابى وخرجت وانزوت أمى تغسل بعض الأوانى بذراع كأنها جريد والغيظ فى صدرها يكاد يتحول بكاء.

وأيقنت أن متاعب جديدة ستحل عندنا وأن أمى المسكينة ستتحول إلى مربية.. إنها محتاجة إلى علاج طويل. ستركب أسنانها الصناعية وها هو ذا الشتاء على الأبواب وحالا سيهجم عليها الروماتزم. وسيقيم (رشدى) وأولاده عندنا إقامة متصلة أو متقطعة.

هناك أربعون يوما تكون الوالدات فيها شبه عاجزات عن العمل ومحتاجات إلى العناية. آه.. يا أمى المسكينة.

وكانت أمى تخاف من عينى بدرية الحادتين القويتين اللتين تشبهان الزئبق. وقد قامت من الولادة عصبية سليطة لا تجد من تشتبك معه فى عراك، واتكأت بكل قواها على مرافقنا الاقتصادية الضعيفة التى كانت فى الأيام الأخيرة أشبه بمريض فى دور النقاهة.

كان الصراخ يملأ بيتنا فى هذه الليلة. بنت بدرية ذات الثلاثة أعوام تلبس قبقاب جدتها وتجرجره على البلاط وتقع وتنهض وتبكى وتضحك ووجهها ملىء بالدمامل. والتوأم الكريم مقسوم بالعدل. الولد فى حجر أمه والبنت فى حجر جدتها. يبكى واحد منهما على الأقل إذا لم يتسابق الاثنان فى البكاء ويشاركهما (رشدى) ولكن بالقهقهة!

قلت فى نفسى ليلتئذ: لعل بدرية تنجب بالنيابة عن الجميع. وخرجت أشم هواء الله، وهواء الله البليل العليل فى نواحى الجيزة.

وجدت (نبيل وعزيزة) جالسين يكتبان وعلامات الفكر والقلق تبدو على وجه الأم. قلت لها:

– هل جئت لأبيع الهموم فى سوق الأحزان؟! ما بالك مكتئبة؟.. قد كنت أرجو عونك لأننى متضايق!

– عندى كل ما يرضيك.

– مظهرك حزين!

– لا تهتم.

– يجب أن أعرف!

– قبل أن تنصرف مباشرة ستعرف أنه أمر تافه.

وتمايلت أعناق الصغيرين للنوم بعد مدة وجعلت أقص عليها همومى والغضب ظاهر فى نبراتى. وبعد أن فرغت نظرت إلى بعين حنون ثم سألتنى:

– أتريد أن تعرف رأيى؟ إننى أم! وعندما تصبح أبا ستعرف بدورك أن الأضرار التى نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل!

وسكتت واختنقت بالبكاء ثم أخرجت من صدرها منديلا مسحت به دموعها وأودعته صدرها من جديد (لقد ذكرت أنها تغش ولديها)!!

قلت فى نفسى: إننا نحتفظ بدموعنا كما نحتفظ بآلامنا... إننا مساكين. وأخشى أن نلد مساكين كما قالت هذه المرأة. والهموم تدفعنا إلى التماس الملذات، تفعل بأعصابنا ما يفعله السرور تماما، كأن شجرتيهما تتغذيان بجذر واحد!

أخذتها بين أحضانى ونحن جالسان. قالت:

– لا مفر؟!

– إننى مهموم!

– ستنسى همومك... أنا لا أطيق أن أراك حزينا..آه!!

لما نمت ليلتئذ أحسست أننى لا أزال فى أحضان الست جليلة.. وأن كفها الصغيرة تفتل شـعر ناصيتى كما كانت تفعل باستمرار. وأن هواء خفيفا ينفذ من تحت مصراع الشباك فيقلق دفء الحجرة. وأننى لسـت فى سـريرى. وأن الكلب الذى ينبح فى حديقة بيتنا الخربة ليس إلا الكلب الشرس الذى يربط وحده فى مخزن الخرق والورق.

وهزتنـى فى الصباح الباكر كف حذرة توقظنى برفق، فلم أسمع بـكاء أحد الطفلين التوأم ولا بـكاء كليهما. فإذا بى أجدنى لا أزال فى فراش الست جليلة. غلبنا النوم ففقدنا وعينا! وكان نور الفجر يتسـلل من الأبواب والكلب ينبح بكثير مـن الطمأنينة فى مخزن الخرق والورق. وصديقتى منفوشـة الشـعر مذعورة العينين تعض ظهر سـبابتها المثنية وصوت منغم ممطوط ينـادى وفيه آثار النوم أول نداء ارتفع فى الحارة:

– «المدمس ال م ى د ا م ى س.. حلو..»

* * *

فى البيت عندنا كان القلق والصمت مخيما على المرأتين: بدرية الشاحبة النفساء وأمى المخلعة الأسنان الغائرة العينين والخدين.

أما (رشـدى) فقد خرج يسأل فى (اسـتقبال الحوادث) فى كل مستشفى قبل أن يذهب إلى مدرسته.

وعندمـا عبرت العتبـة الخارجية نبح الكلب فانشـغلت برهة خاطفـة بالتفريق بين صوته وصوت الذى كنـت أسمع نباحه طول الليلة الماضية.

وانفجرت أمـى باكية حـين رأتنى، ونظرت بدريـة باحتقار كأنها تقول لى أنا أعرف أين كنت! وتركتنا ودخلت إلى توأمها. ثم تهـاوت أمى على كنبة ولم تتكلـم. وكان من الضرورى أن أقول لها كلمة فجعلت أفكر فى ماذا أقول وأخيرا نطقت.

– لا تحزنى يا ماما.

فانفتحت:

– عـلام أحزن؟!... أنا أعلم أنك كنت تشـم هـواء الله.. لكن.. أليـس من حق البهائم الذيـن ينتظرونك أن تخبرهـم مقدما بأنك ستبيت تشم هواء الله طول الليل؟!

فحملقت وملأ الغضب صدرى وسخنت أذناى ثم صرخت فيها:

– أنـا أعلم أننى مخطـئ. لكن الأمر كان خارجـا عن إرادتى.. سـهرت عند صديق فغلبنى النوم عنـده.. هل من الضرورى أن أظل تحـت الوصاية طول عمرى.. ما هـذا العذاب؟.. ينبغى أن تكلمونا بطريقة تناسـب عمرنـا.. إننى ابن أربعة وثلاثـين إن زدت كلمة واحدة فلن أدخل هذا البيت الذى عمه الخراب..

ثم جعلت ألهث كأننى جريت كيلو.. وأخذت أمى. وبدا وجهها طويـلا وأنفها كبـيرا كأننى أراها فى مرآة خادعة. وشـرعت أضع

رجـلا على رجل وأنزلها وأخبط كفا بكف وأمصمص. وأهز رأسـى فى كل اتجاه.. وهى.. ساكنة مذعورة.

وأخيرا ألقت فى وجهى كلمة. قالت بصوت خافت:

– كنت عند امرأة.. أغبى النساء تعرف ذلك!

وخرجت من الحجرة.

ومـن الغريب أننى ظللت أزعـق كأنها أمامى. كانت الشـحنة القديمـة تريد أن تتزحزح لتخلى مكانهـا لتجارب الحاضر. لكأن باطننا يطرد بعض ما فيه ويفيض به كما تفعل العيون. قلت:

– كنـت عند امرأة.. هـذا صحيح.. ماذا تريـدون؟ ليس لأحد عندى شـىء. إنكم لا تشـبعون. لقد وهبت حنانـك لكل الناس إلا أنا.. لا تلومينى إذن.. إن كنت أمى فانظرى إلى مصالحى.. سـأترك لك العاصمة.. سأنتقل إلى الصعيد..

ثم انخرطت فى البكاء.

وهبط على البيت سـكون كالـذى يهبط على الليـل بعد انقطاع الطلقات فيه، فسـمعت خفـق قلبى. ودخل (رشـدى) من الخارج وعليه علامـات الإرهاق والقلق ووقف أمامى مفتول الكرافتة طويل الذقن محمر العينين منفوخ الخدين وقال بصوت خائف:

– قلقنا عليك!

فنظـرت إليه نظرة زاجرة ففر مـن أمامى. وتقدم الوقت بعد أن خرج رشـدى إلى المدرسـة وفات ميعاد ذهابـى إلى عملى. فدخلت

على أمى طويلة رفيعة كأنها تمشى على خشبتين وعلى خدها آثار دمعها، ثم جلست جوارى مربوكة لا تعرف كيف تبدأ...

وتحسست كاهلى بكفها فلم أنظر إليها فخرت على ركبتى تقبلها فشددت شعرى وأنا أجأر بالبكاء لأننى تذكرت المرأة التى قضيت الليل فى حضنها وكيف كانت تمرغ وجهها فى حجرى وأحسست أننى بينها وبين أمى كخيط من الحرير تجذبنى الأم باسم البر وتجذبنى الأخرى باسم الحاجة، وأنا بين كفيهما عرضة للتلف!!

سمعت صوتها حنونا:

– ولدى... سأموت بين يديك حالا إن لم تكف عن البكاء. هل عددتنى أسوأ من حيوان؟! إن الكلبة لم تأكل جروها قط!

قلت لها بصوت متهدج والدمع فى عينى:

– كلامك هذا هو الذى يبكينى. إن كنت تحبينى فاسكتى!

ثم ارتميت على صدرها كأنى أفتش عن ثديها بكف طفل...

– آه.. يا ربى.. ضمينى إليك يا أمى.. واغفرى لى! لن أخرج من البيت ما لم يتبعنى رضاك!!

***

وشكوت للأستاذ بدران ما أقاسيه من عناء فشجعنى على الألم: «إنه يا بنى الحرارة الطبيعية التى يجب أن تتوفر ليتحول الطفل إلى رجل لا تحزن».

وفى الليل لم أخرج من البيت، وكأنما رأيت الوقت ملكا لأمى وليس من حق إنسان آخر أن يشاركها فيه.

وأوى (رشـدى) وأسرته إلى غرفتهم عندنا. وجلست أسامر أمى كما كنا نفعل. وكنت أرى نبض قلبها فى نحرها. إن جرحى الأعداء لا يجوز أن نجهز عليهم، فما بالك بمثل هذه المرأة؟

قالت أمى:

– سأكلمك بصراحة. هل تظن أننى متعمدة شيئا؟

لقد حدث أخيرا أمر لم أخبرك عنه:

قبل انصرافى من عيادة الطبيب منذ ليال جلست إحدى المريضات تجاذبنـى أطـراف الحديث، وتبـين لى أنها تعـرف أم عواطف. وتسلسـل الحديث وامتد فأخذت تمـدح أخلاقها وطباعها ثم قالت فجـأة: إنهم كانوا أثرياء لولا القضيـة الملعونة التى أضاعت مالهم (وسألتها طبعا عن هذه القضية. فعرفت أن زوجها كان قد اتهم فى (تزييف نقود)...

– وبرئ؟

– بل وسجن!

قلت باشمئزاز:

– دعينا من هذا الحديث.

– بنت الحلال فى انتظار ابن الحلال... إننى أدعو لك.. أحلامى تنبئنى بأنك سـعيد. بدرية طماعة ولا أستطيع دفعها. هل أطردها كلما سحبت زوجها وجاءت؟ قلب الأم يا فؤاد لا يقوى على القسوة وعندما تكون أبا...

فأكملت العبارة فى نفسى بما قالته الست جليلة ليلة أمس:
«ستعرف بدورك أن الأضرار التى نلحقها بأبنائنا بلا قصد تدفعنا إليها قوة ترفع الجبل» ثم قلت لأمى:
– لا تظنى أننى ساخط على حياتى.
فأجابتنى بحياء:
– أنا أعرف أنك غير ساخط. لكن... ليست هذه هى الطريقة!
– إن الوقت لم يفت بعد.
– تزوج. حاول أن تعملها ولو دون استشارتى. لقد أصبحت عاجزة عن أن أتكفل بالأمر. قل لى: إذا كنت تحبها.. فلماذا لا تتزوجها؟!
وصرفت عنى وجهها لتشجعنى على الإجابة فوجدت نفسى فى حرج ماذا أقول؟؟ أجبتها أخيرا ووجهى إلى ناحية غير ناحيتها:
– إنها لا تصلح!
فسألتنى ووجهها لا يزال منصرفا عنى:
– لماذا؟
فأجبتها ووضعى لم يتغير:
– لأسباب من العسير على أن أحصيها.
فحولت وجهها إلى وهتفت والقلق فى عينيها الغائرتين:
– تزوج قبل أن أموت. إننى خائفة عليك!!
* * *

١٩

بـدأت ألسـنة النـاس تنوشـها وأحزنهـا ذلك (وهـذا هو ما أخفتـه عنى) لكن السـت جليلـة أصبحت لا تبالى بمـا يقولون. وألف الصبيان وجودى بينهما. وكانا ينظران إلى وجهينا فى بعض الأحيان ثم ينسحبان إلى الخارج.

وتمسح بى عم سيد فى الإدارة ذات يوم وأخبرنى بطريقة مسمومة أن الست جليلة وصل إليها قدر من المال عن طريق (الوصية) وبهذا المال بدأت أعمالها التى أعرفها.

وأزعجنى هذا الأمر وأقلـق بالى وأخفيته بدورى عنها مدة غير قصيرة وقد كنت فى الحقيقة أخاف أن أفقدها. وأصبحت عاجزا أن أتصور الحياة خالية من ظلها:

– هل من الممكن أن يعيش أحدنا دون الآخر؟

فأجابتنـى قائلـة وكان ذلك فـى نهاية وقت عددناه من أسـعد الأوقات:

– سألت نفسى هذا السؤال ألف مرة، وأنت حاضر وأنت غائب، لكننى فررت من الجواب.

– لماذا إن الإجابة عنه لا تخلو من الطرافة!

وابتسمت وهززت رأسى واستطردت:

– مــاذا يحدث فى الدنيا لو مر عام كامــل ولا أدخل الجيزة ولا أدور حــول (الجراج) والمخزن. ولا أراك تقبلين أنامل كفى. وأحصى همومى وحيدا كأننى أســير. وأبحث من جديد عن قلب جديد. وأمر على بيتكم وأتطلع إلى وجوه سكانه بعد أن خرجتم منه. وأتخيل أى فراش نصب فى هذه الغرفة وأى ناس ناموا فيها. وأنك عشت بعدى أرضا محرمة على كل إنسان أو أرضا حلالا يعبرها رجل غيرى...

فدفعتنى فى صدرى بقبضتها لأفيق كأننى مصروع على وشك أن تأخذه النوبة وقالت لى:

– ما هذا الذى تقوله؟!

ولأول مــرة رأيت ملامحها متغيرة. وفطنت فجأة – ولأول مرة أيضــا – إلى انتفاخ خفيف تحت عينيها، وشــعرات بيض تلمع فى أماكن مختلفة خصوصا فى مجرى مفرق الشعر.

– هل تضايقت مما أقول؟ أليس هذا كله جائزا؟! إن الزمن يفرق حتى بين الأزواج!

فهمست:

– حتى بــين الأزواج!!.. إنك على حــق! إن أحلامنا أكثر من أحلامكم. نحن نساء!

وتبينت أنها غارت من امرأة مجهولة لم تقع عليها عينها بعد. كما فعلت أمى، تلك التى أحزنها أن تقول امرأة ظننا أنها ســتكون (حماتى): «إن يديها تجيدان طبخ صنف تجيده أمى».

واستحال بطؤها إلى تبلد مريع. وظهر ضعف الحيلة والاستسلام فى نظرتها وجلستها. فدفعتها – مداعبا – بقبضة يدى فى صدرها كما سبق أن فعلت بى وقلت لها:

– فى ماذا تفكرين؟!

لكنها كانت فى لجة أعمق من أن تدركها ذراعى فلم أستطع أن أستخلصها. فسكت. قالت بعد فترة لتسترد رضاى:

– هل غضبت؟ أنت لا تعرف ماذا سيصيبنى إن فقدتك. ولا تستطيع أن تعرف بماذا سأذكرك إذا ما ابتعدت عنى؟

– بذكرياتى.

فلمعت عيناها بنظرة مخيفة. وقالت وهى تبتسم ابتسامة من ظفر بغريمه:

– لا!!.. غلبتك!

فهززت كتفى لأننى لم أفهم. فاستطردت:

– أخذت منك تذكارا عزيزا. أخذت صورتك.

– لم يحدث!

– سرقتها منك وأنت غافل.

– وهل يجوز هذا؟

– حدث بلا قصد.

– وكيف؟

فاندفعت فجأة:

– من المحتمل.. أن.. يكون فى بطنى..

فصرخت:

– ماذا؟!

فأجابت بهدوء بالغ:

– ماذا؟.. أليس هذا نتيجة طبيعية لما نعمل؟!

فتراقصت أمامى على بيـاض الحائط المربع حوادث رأيتها على الشاشة.

فيها فتاة فرنسـية غنية ولدت من عشيقها الفقير غلاما فهربته عند فتاة ريفية عجوز، وكان كل من الأبوين يذهب ليزوره خلسـة ويعود. وقد أبكت مأساتهما كل عين.

فبدت على وجهى الربكة. فسألتنى:

– ألا تحب أن يكون لك ولد؟

– ستذهبين عقلى!.. أحب.. لكن ليس بهذه الطريقة!

– هذا لأنه منى؟!

– بل لأننا لسنا زوجين.

– هيـه!!... ولا يعقل أن نكـون زوجين.. إذن فكيف نتصرف فى هذا يا عزيزى؟!

– لا أدرى!

– اشتركنا فى الهناء، فلنشترك فى المسئولية.

– تصرفى كما يتصرف النساء!

ضحكت حتى كادت تستلقى على ظهرها وقالت وعيناها تدمعان من الضحك:

– ولماذا لا تتصرف أنت كما يتصرف الرجال؟!.. آه أيها الطفل الصغير.. إننى أسخر منك.. كنت أريد أن أسبب لك شيئا من الأحزان التى ستتركها لى فى المستقبل.

وجمعت أصابعى بين كفيها. وأخذت تلقى عليها قبلة، ثم تنظر إلى نظرة.. على التوالى!

* * *

قلت فى نفسى ذات ليلة وأنا راقد فى فراشى:

لماذا لا يكون ما سمعته أمى عن أسرة (عواطف) كذبا فى كذب،وتوقفت أفكارى فلم تخط خطوة إلى الأمام لأن صديقتى كانت تذيقنى من الحياة ألوانا كثيرة.

ثم سألت نفسى: ولماذا لم أسأل الست جليلة عن حكاية (الوصية) التى ألقى إلى بخبرها عم سيد بطريقة تثير الشكوك؟

ثم سألت نفسى: ولماذا يتزوج الناس؟! أهم يتزوجون لينسلوا أم ينسلون لأنهم تزوجوا؟

وقهقهت وأنا فى فراشى كأنما أعجبنى السؤال. وتنهدت وتمططت لأجيب عنه بلذة، وكانت أمى فى الحجرة الأخرى يفصل بينى وبينها الجدار، تعانى سعالا وأرقا وأوصابا أخرى وظللت أديره فى خاطرى والكلب ينبح فى الحديقة التى شاخت أشجارها فلم يبق لها فائدة إلا الظل والخضرة.

لماذا يتزوجون؟!

إن ذكـــرى أبى لم تزد شـــيئا ولم تنقص شـــيئا بوجودى. كل ما استفاده منى – وراء الثرى – أننى أدون اسمه بعد اسمى فى كشف المرتبات واستمارات الحسابات. فهل هذا خلود؟!

من الأفضل إذن أن نقول: إن الناس ينسلون لأنهم تزوجوا.. إذن فوضعى مع الســت جليلة وضع مقبــول مادمت لم أخلد أبى وما دام الناس ينسلون لأنهم تزوجوا..

ونبح الكلب لأن الســكير الذى يمر كل ليلة أمام السور فى نفس الميعاد مر فى هذه اللحظة... فجعلت أســأل نفســى... ولماذا يسكر الناس؟...

ثم قلت: كما كان أبى يسكر..

وظللت أردد الجواب حتى رحت فى النوم.

ثم ســألت الســت جليلة عن حكايــة الوصيــة وارتاعت كأننى كشــفت عنها ســترا لم أكتشــفه من قبل. ثم قصت علىّ القصة. ثم أعرضت عنها وهجرتها ثلاثة أسابيع، استطعت خلالها أن أتمثلها وأتصورها بوضوح. ثم تصالحنا فقالت لى ليلتئذ. إن تخيلاتك تتعبك أيها الصبى... هل عدت؟!

* * *

لما ضاقت الحال على الست جليلة بعد وفاة زوجها كان من الممكن جدا أن تدخل سوق البغايا، لكنها صبرت على الجوع حتى قيض الله لها فرصة عابرة، ولو أن بعض الرشــاش أصابها بسببها. كان على

مقربة من الحى الذى كانت تسكنه آنذاك، طبيب عجوز فى شقة كبيرة من بيوت الأوقاف، اتخذها عيادة وسكنا. وكان من الذين احترفوا الطب بالممارسة، وقيل إنه عمل طبيبا فى الجيش ثم أحيل إلى المعاش منذ خمس سنوات، يخرج وقت الصباح أو العصر نظيفا أنيقا نحيف العود لامع الحذاء عليه قميص أبيض منشى ورباط عنق أسود لا يتغير وعلى عينيه منظار رقيق فى شفافية فقاعة الصابون. وينقل خطاه بحذر كأنه يخشى أن يجرح الأرض.

ولم يكن يزوره فى العيادة إلا أفراد قلائل. يفتح لهم الباب بنفسه ويحملق فيهم بعينه الضعيفة أو يفتح لهم الخادم – إن وجد – لأن الطبيب عاش عازبا طول العمر. لم يكن وجهه مريبا. كنت تتخيله سليل عز. يعتزل الناس فى ترفع لا يخلو من الأدب والعطف والشفقة سطا عليه اللصوص ذات ليلة فوجدوا كل شىء فى الشقة عتيقا إلا الملابس والساعة الذهبية. ومنذ تلك الليلة ربط كلبا ضخما وراء بابه، وعاش مدة طويلة بلا خادم. وكان يفتح الباب بنفسه للمرضى النادرين الذين يذهبون إليه، ويحملق فيهم وهو يدنى وجهه منهم. ولما شعرت الست جليلة بإعياء شديد وشربت من الزرنيخ والحديد ثلاث زجاجات وظلت تدوخ كما هى – ذهبت إلى هذا الطبيب تطرق بابه:

– أكاد أسقط من الإعياء أثناء سيرى يا سيدى، دواء المستشفيات لم يجدنى نفعا وأنا امرأة فقيرة.

– سأرى بنفسى.

وأدرك أن انحطاط قواها ناشئ من سوء التغذية، وعاد يحملق فيها بعينيه اللتين لم تخلوا من الصفاء على الرغم من الشيخوخة. ثم سألها:

– ماذا يشتغل زوجك؟

فأجابت متلعثمة:

– لا شيء... مات!

– وكيف تعيشين؟

– لا أدرى.. لكننى أعيش؟

– هل لك أولاد؟

– صغار. ولد وبنت.

– يعيشون بنفس طريقتك؟

– طبعا.

– وأين تسكنين؟

فأشارت بذراعها ممدودة إلى الحى الذى لا يقع بعيدا جدا عن المكان. الحى الذى يشبه الخلية... لكنها مليئة بالذباب والأوحال قال الطبيب بعد فترة تفكير:

– تشتغلين عندى ممرضة؟

– أشتغل.

ولبست ثيابا نظيفة وعادت جميلة وأصبحت رشيقة فى (المريلة) البيضاء. وكان ولداها يذهبان فيلعبان فى الشقة الواسعة ما دام

المـكان غير مزدحـم بالناس.. وتطوعت بتنظيـف المكان فى أوقات متقاربـة، ثم بدأت تطبـخ للطبيب، ثم أخذت ترعى بقية شـئون البيت، ثم اسـتحالت إلى أنيسة، ثم أغدق عليها من ماله وقال لها ذات مساء:

– ألا تعرفين لمـاذا أحبك؟ لأن طبعك الوديع السـاكن يا بنيتى يذكرنى بالفتاة الأولى التى أحبتنى فى شبابها...

وتنهد ثم قام إلى خزانة خاصة فأخرج منها صورة لشـابة عليها ملابس من طراز صار قديما، واستطرد الطبيب:

– كثيرا مـا أحرقت قلوبنا بنات، وقد تسـببت لها فى الموت. دفعتها إلى أن تحرق نفسها.. أما بقية القصة... فسيظل هنا (وأشار إلى صدره)..

وعاشـت معه السـت جليلة عامين اثنين كانت فى الحقيقة كل شـىء له، وقد خصها بأشـياء كثيرة... وربما خصته هى بأشياء.. ولمـا مرض فى أيامه الأخيرة كانت تدفئ له زجاجات الماء وتضعها تحـت قدميه فى الفراش وتلفه بالغطـاء ثم تنصرف. وقال لها إنه أعـد لها مفاجأة سـتعرفها بعـد موته، وكانت وصيـة بمئتين من الجنيهات لأنه لم يكن غنيا.

لكن الناس قد يفتشـون عن دوافع غير فاضلـة للأعمال الفاضلة وكنت أنا شـخصيا فى صف الذين التمسوا لهذه الوصية أسبابا غير ناصعة.

وعلى كل حال عادت الست جليلة إلى الطبيب صباح يوم فرأته ميتا وحده. وإحدى زجاجات الماء محطمة على الأرض عند أقدام السرير. وعيناه مفتوحتان عن مقلتين كأنهما من الخرز الأبيض تحملقان فى القفر والسكون. والبيت الذى يسكنه لا يصيح فيه كائن حى إلا الكلب المشدود إلى شنكل الشقة!

قلت لها: «إننى أصبحت أغار عليك حتى من الذين مروا فى حياتك وانفصل واقعهم عن واقعك». فسألتنى كأنما لذ لها أن تعبث بى:

– من أجل أى شىء أحببتنى؟

– من أجلك جملة واحدة: اسمك وجسمك وروحك وكل شىء فيك. والذكريات التى تحوط صلتى بك. وحتى تعثرى فى الظلام ونظرى كل مرة إلى وحشة الحى من الخلف...(الجراح) ومخزن الخرق والورق...و... وماذا أيضا!.. أظنك فهمت الآن!

فقالت بعد تفكير وبلهجة تنذر بما يقلق:

– اسمع.

نعم.

– تعال نجرب أن نعود بعلاقتنا إلى ما كانت عليه ذهبنا معا «بنبيل» إلى المستشفى.

وفترت أجفانها وارتخت أوصالها كأنما دب فى جسمها خمر... ثم قالت:

– ليتنى أعرف كيف أصف هذه الفترة؟.. إنها شىء لا يوصف..

– هل أفهم من هذا أننى سببت لك قلقا وأورثتك متاعب؟

فسارعت إلى نفى أفكارى بحماسة حارة ثم قالت:

– أريد فقط أن أستبقيك لنفسى مدة أطول... هذا ما أريد... هل فهمت يا صديقى؟!

فهززت رأسى مؤمنا ثم قلت:

– حسنا. نبدأ من اليوم.

وظللنا كذلك خمسة عشر يوما أجبرتنى فيها على أن أزورها بكثرة وبمعدل غير عادى حتى لا أكون هاربا من الواقع.

وفى اليوم الرابع عشر غرقنا جنب الشاطئ نحن الاثنين. ولما أفقنا ذكرنا ونحن نضحك فى يأس أنه كان من المستطاع أن نعبر التجربة لو تسلحنا بشىء من العزيمة.

وانخرطت هى فى بكاء عجيب. كان مريعا إلى حد أنه غير ملامحها فرأيتها أمامى كأنها امرأة سواها. ودخل نبيل علينا فجأة كأنما انبثق من الأرض. هبط من فوق السطوح. وكانت أخته فى الخارج. وسألها:

– لماذا تبكين يا ماما؟

ونظر إلى مستفسرا بعينين لم تخلوا من الدموع كأن السبب عندى أنا، فأدركت فى هذه اللحظة فظاعة غش الأبرياء.

وبعد أن هدأ ما بها قالت لى:

– هناك أشياء تقلقنى فى هذه الأيام.. أرأيت أولا كيف انهزمنا؟ هذا يدل على شىء خطير بالنسبة إلى وإليك... أنا لا أنام جزءا من

الليل... عددت ذات ليلة عدد النبحات التى نبحها الكلب فى المخزن لأننى أرقت حتى الفجر.. وأصبحت أعرف الوقت برائحة الهواء من طول السهر.. وهناك شىء آخر... إن قلبى يحدثنى أن الله سينتقم منى... على أنك ستتركنى قريبا إما بسببى أو بسبب الزواج...

– بسبب الزواج هذا مفهوم، فما هو السبب الآخر؟

فوضعت سبابتها تحت إحدى عينيها مشيرة إلى لمسات الشيخوخة فى هذه البقعة وقالت:

– ألا ترى؟!

وظللنا صمت، وانشغلت بالنظر إلى معصمى الذى بدت عليه النحافة فى الأيام الأخيرة. وحضرنى فى هذه اللحظة زميلى فى الدراسة الذى قابلنى عصر يوم على طريق المرصد... هل تذكره؟ يوم كنا فى مدخل الربيع وهو منحدر مع ابنه بعد زيارته لأحد المرضى فى المستشفى العقلى. وذكرت بياض شعره وآثار الزمن وخطوات السنين على ملامحه وهو من أندادى. وكان ذلك منذ خمس سنوات على الأقل يوم كانت الأعشاب على جنب الطريق المسفلت تشارك فى مقدم الربيع بأزهار صغيرة على قدر طاقتها، ويوم قال لى صديقى هذا مداعبا:

– افرج عنه... افرج عن ولدك... إن الإنسانية لا تزال محتاجة إلى مواهب... من يدرى؟!

وقطعت الست جليلة حبل أفكارى:

– ولم لا تتزوج، هل تنتظر حادثا معينا؟

فسألتها فى قلق:

– ماذا تعنين؟!

فأجابت متهربة:

– لا أعنى شيئا. حرام أن تعرض عن نفسك... أنا أحبك يا فؤاد.. لا تبق عازبا طول عمرك فأنا لا أستطيع أن أنسى يوم موت الطبيب ولا نباح الكلب ولا زجاجة الماء المكسورة أمام سريره فى الليل...

فلم أجب. وملأت تجعدات الفكر والقلق والتدبير صفحة جبينى وظللت مطرقا أنظر إلى معصمى والعروق اللازوردية الزرقاء التى أصبحت ظاهرة البروز فى ظهر كفى، وأخيرا نهضت من مجلسى كأنما رفعنى (زمبلك) وقلت للست جليلة دون أن ألقى عليها نظرة:

– سلام عليكم!!

وصفقت الباب بيدى فرن فى الليل والتمست سبيلى من الطريق الخلفى.

* * *

٢٠

وصـارت أمى كثيرة الأحلام تتحدث كثيرا عن الموت والأموات وركبتهـا مخاوف لم تتغلب عليها صلاتهـا. وفى كثير من الليالى كانت تستدعينى لأنام على مقربة منها. والدنيا فى نظرنا لا تساوى جناح بعوضة.

وعادت بدرية إلى البيت لتخدم أمها، وسحبت وراءها الفوضى التقليديـة كأنهـا ذيل من الغبـار. وكانت منفوخة البطن تمشـى بحملها وراءها ثلاثة، والضجيج يملأ أركان المنزل. والحديقة أثر والسطوح مخلع البلاط. والمبانى عن يمين بيتنا وشماله قد ارتفعت وهو على مسـتواه القديم، فصار السطح كأنه بئر فى قاعه الغسيل، وحظيرة الدجاج والأطفال، وكراكيب البيت.

وأمـى فى حـال لا يجـوز لأحد فيهـا أن يضايقها. بحسـبها أفكارها! إنها تكفيها!...

تسـتعيد تاريخ حياتها كل يـوم ثم تقلب نظرهـا فيما حولها وتبكـى. وكانت بدرية تصرخ فى وجههـا أحيانا وتزجرها كأنها طفلة، لأن قوتنا إذا تركتنا تحرك الناس وتركونا.

أمـا أنا فكنت فى ركود أشـبه بالذى يصيب الشـاردين أحاول عزل نفسـى وأدس رأسـى فى أى شـىء أقرؤه أو أجلس وحيدا فى

مكان موحش. وكم أطللت على مغارات الجبل، ووقفت أراقب أحد الثعابين وهو يتحوى عند صخرة أو يتسرب إلى جحر. وهذا الركود هو الدرقة التى نأوى إليها بضعفنا كما تدخل السلحفاة فى درقتها الطبيعية.

وقالت أمى ذات مساء: «إننى سأموت يا فؤاد... وأنا... إذا كانت الظروف لم تساعدنى على إسعادك.. فإن عزائى أنك رجل.. وأن نياتى حيالك يا بنى كانت خيرا من أعمالى معك... فإذا كنت قد أخفقت فى تحقيق ما كنت ترجوه... فلا تحقد على!».

ومن الغريب أنها لم تبك، كأن الدموع قد فات أوانها.

وقامت فى الصباح تعلن فى فرح أنها شعرت بتحسن غير منتظر ونهضت من فراشها وجالت فى البيت وصعدت إلى السطح وأطعمت الدجاج وجمعت بيضه ثم جلست فى الشمس. ولعب أمامها أبناء بدرية، وغنت لبعضهم بنفس مقطوع، وذبحت دجاجة ضبطوها عدة مرات وهى تثقب البيض بمنقارها وتشربه. وفاجأتنى وقت الظهر بأن قدمت لى طبقا من الكشك ووركا من الدجاجة. ثم تركتنا ودخلت إلى غرفتها...

كان الوقت شتاء واليوم صحوا جميل الشمس، فخرجت بعد الغداء إلى الخلاء أشعر أن براعم جديدة تتفتح على غصنى، وكنت منشرحا فتذكرت صديقتى. إننى لم أرها منذ شهر كامل ولم أحاول أن أذهب إليها، بعد الموقف الذى وقفته منى ليلة صفقت بابها

وخرجت. ولم تذهب إلى فى عملى، قلت بينى وبين نفسى: إنها عنيدة فلأكن عنيدا وهكذا هن. لقد بلغت (درجة التشبع).. الحب حاجة لا أكثر ولا أقل. بدليل أننا لم نستطع أن نحب بأرواحنا هكذا فى صمت بعد أن أحببنا بكل ما فينا. أنا وهى.

إنه يبدو على الأفق – وقريبا جدا كما ترى عينى – أن ناسا سيغيبون عن نطاقى. ستتغير الأحوال.. ستنطفئ الأنوار كما قالت الست جليلة.. طيب.. ولماذا لا يكون العكس؟!

لن أذهب إليها. لكن.. لماذا لا تكون عاجزة عن أن تحضر إلى؟! لن تبيعنى بهذه السهولة. لقد ظلت تعطى وأظنها مستعدة لأن تعطى أيضا، آه.. لن أذهب إليها...

وفى المساء عادت أمى إلى ما كانت عليه من تعب.. فنذرت لله إن خفف ما بها لتحجن إلى بيت الله!

وكررت لى أنه لا يجب أن أحزن عليها إذا ماتت: «لا تستسلم للأحزان يا بنى فإنها تقتل... تزوج بسرعة... فإنها ولا شك ستنسيك كل ما فات!!».

– أنت بخير يا أمى فلا تقولى ذلك!

ولما تذكرت الست جليلة وهجرها الذى قد يكون أبديا ورأيت قرب نهاية أمى أحسست كأننى فى عربة يجرها فرسان استطاعت كل واحدة منهما أن تتحرر من رباطها وتجرى فى اتجاه، وبقيت أنا حيث كنت جالسا فى العربة المتوقفة وحيدا أنظر حائرا مذهولا إلى كل فرس مرة!!

لا بــد أن أنفض أحزانى بين يدى صديقتى. ســأذهب لأراها لأن عندها ما شغلها عنى، فلأنظر من أى نوع هو. وعرجت على حجرة أمى وأنا فى ملابس الخروج، قالت:

– إلى أين يا فؤاد؟

وكأنها لم تنتظر لأكذب عليها فأعفتنى من الكذب الذى عودتنى عليه معظم حياتى، فاستطردت قبل أن أجيب:

– أرجوك ألا تغيب.

فســرت أتلكأ فى نواحى الضاحية وأستمع إلى ريح الجبل التى تنصب على رءوس الأشــجار فى الحدائق فتئز بها وتميل ثم تعود إلى وضعها الأول وكان الليل شــديد البرودة لكننى كنت أشعر أنى فــى حاجة إلــى أن آكل الثلج أو أشــربه مذابا. والأســوار الطويلة حول البيوت الكبيرة تبدو كأســوار الجبانات... والأضواء من وراء المصاريع وكأنها ساهرة على الموتى فى الداخل...

وهتــف بى هاتف فى داخلى: ليس هذا وقــت النزهة ولا لقاء العشيقات...

ربما كانت أمى محتاجة إلى فذهبت لأسهر جنبها.

.. أمــا بدرية فكان يبدو علــى وجهها ملامح من ينتظر اللحظة التى تنفض فيها الشركة، وزوجها جالسا يجتر، لست أدرى أكان يــأكل أو كان يقزقز (لبــا). وخداه الكبيران يتحــركان، والأطفال نائمون، والشــتاء فى عنفوانه. وعوامل الطبيعة على وشك أن تبذل مجهودا غير عادى.

والنهايات حتى لو كانت مخيفة يتعجل الناس سعيهم إليها، كنت على الرغم من توقعى للأخطار وخوفى منها أرى فى قرارة نفسى تشوقا إليها كالضربة ننتظرها من الخلف، أو الرصاصة نتوقعها وعيوننا معصوبة.

ولما دخلت على أمى أشارت إلى أن أصعد فأجلس جنبها على السرير، وقالت بصوت ضعيف: «لم يعد لى ما أخاف عليه إلا أنت يا بنى... تذكر وصيتى! حافظ على نفسك!».

ولم تحاول أن تنظر إلى بعد ذلك، وسكتت كأنها تتأهب للنوم أما أنا فلم أتكلم. لم يكن فى قلبى لها إلا كل حب وإشفاق، بل شعرت أنها مظلومة، ماذا أخذت من حياتها إلا الحب الذى أورثها المخاوف؟! كالبخيل يدفن المال فى جوف الأرض حتى تأكله الرطوبة، ولو تركه يسعى فى السوق لعاد إليه سليما ومعه الربح!!

كانت كعود من القصب متدثرة فى الأغطية. ماذا تقول فى نفسها الآن؟ هل ترانى داخلا عليها وفى يمينى امرأة فى ملابس بيضاء وترى نفسها مدفوعة نحوها لتقبلها فى خدها؟! أم ترى سميرة واقفة على بعد وهى تشير إليها بأن تجىء وتتلفت كأنها تخاف أن يراهما أحد؟!

وهذا ما رأته أمى فى أحلامها وفسرته بالموت. أنا لا أستطيع إلا أن أحزن عليها:

- ماما.. ماما.. لماذا لا تردين؟!

وانقصف فى هذه اللحظة غصن فى الشجرة العجوز القائمة فى ركن الحديقــة فعبرت قرقعته عن معنى (الانفصال) فنظرت إلى أمى وهى تبتســم لكنها لم تتكلم، وسحبت كفها وقبلتها ثم ملت على جبينها وتركت عليه قبلة أخرى... ولم أستطع أن أبقى فى الحجرة...

وربضــت جنبهــا بدرية كمــن يرقب أمرا مقــررا ولا يخيف، وذهبت أنا إلى حجرتى لأحسب حسبة حياتنا.

ومع الفجر صرخت بدرية ونبح الكلب فجأرت بالبكاء:

– لماذا تركتنى يا أماه!!

لكن الأســتاذ بــدران قال لى وقت العزاء كأنــه يذكرنى بأمر لا ينبغى أن ينســى: «هل من الطبيعى أن تتركها أنت أو من الطبيعى أن تتركك هى؟.. تجلد أيها الطفل!».

* * *

ولم يخل على البيت فقد ظل عامرا بأنفاس بدرية.

كانت فى ثيابها الســوداء ونظراتها القلقة وجســمها النحيف وطبعها الحاد شديدة الإخافة.

وبعد ثمان وأربعين ساعة ذهبت إلى الإدارة فأخبرنى عم سيد: «إنها جاءت وسألت عنى» قلت له فى شرود:

– من هى؟

فأجاب ببرود وخبث:

– هى!... هى نفسها!

فتركته ودخلت.

ولما انقضى النهار سرت إليها سير العطاشى. فى القلب حزن يشبه الجرح يريد الضمادة، أشعر أنى أريد حنانا من نوع لا تستطيع امرأة أن تمنحه إلا الست جليلة. حنان الأم مخلوطا بالراحة الجسمية والتنهد والدموع، وقد ينتهى بالنوم الطويل.

وطالعتنى معالم حيهم فى الليل المظلم كأنها أشباح على الشاطئ أراها وأنا فى اليم. وكان بابها نصف مفتوح فرأيتها فى الصالة واقفة وفى يدها جريدة نخلة تهدم بأطراف سعفها «بيت عنكبوت» فى أحد الأركان على مقربة من السقف.

ودفعت الباب ودخلت ثم أقفلته بظهرى.

وألقت ما فى يدها والتفتت مدهوشة. ثم أقبلت نحوى فارتميت عليها أبكى بصوت مرتفع. حذرتنى قائلة وسبابتها على فمها: «إنهما فى الداخل.. ماذا يقولان إن سمعا بكاءك؟!».

وتدافعنا نحو الحجرة فنظرت إلى رباط عنقى الأسود وقالت وكأنها تذكرنى بإنذار قديم:

– انتهى الأمر؟!... ألم يكن هذا متوقعا؟!.. لا تشق نفسك! (وتحسست شعر ناصيتى) أيها الطفل العزيز!

وساد سكون فلم يتكلم أحدنا، وتركتنى وذهبت إلى الداخل.

كان التعب باديا عليها والسن كذلك. بدت بنت خمس وأربعين سنة أو تزيد. وخطوط الشيخوخة فى وجهها تقرأها كل عين.

وجلست مشوقا لأن أرى ماذا ستعمل، متلهفا إلى نسمة حنان تهب من أى مكان. فلما رجعت إلىَّ كان فى مقلتيها دموع، وجلست وشىء من الخوف يبدو فى حركتها أشبه بذى الثوب النظيف ينظر إلى مكان جلوسه فى حذر، ثم أمسكت كفى وهى بعيدة عنى وقالت بلهجة غريبة:

– لو لم يحدث بيننا لاستطعت أن أكون أمك!

فأطرقت أتدبر قولها. وخيل إلى بعد وهلة وكفها تدعك كفى أنها تقول ذلك لتنفرنى من شىء معين. فنظرت بوجه فى مثل بياض الشمع وعينين تلمعان كالمرآة قائلا باحتجاج:

– ما هذا اللقاء الحار؟!

فأجابت بيقين:

– لا تحزن... لا تتعجل فسأحكى لك كل شىء.

– قولى.

قالت برقة.

– حاضر... سأقول.. إذا جاء الفراق فى الوقت المناسب لم يسبب أحزانا كبيرة. وكنت أريد أن أقول لك هذا الكلام ليلة خرجت غاضبا من عندى، من الخير أن نضع خاتمة لما بيننا فى وقت مبكر. المصلحة مشتركة وكل منا سيستفيد.

فقمت من مكانى غاضبا وجريت نحو باب الغرفة بنفس الطريقة المفاجئة الرعناء التى خرجت بها فى المرة السابقة. فجرت خلفى

واحتضنتنى مــن الوراء ورجتنى بصوت مخنــوق مغلوب متهافت يدل على الحب وتعارض المصالح:

– لا تتصرف دائما كما يتصرف الأطفال... عد معى يا حبيبى.

فعدت وجلست ســاكنا.. وبعد وهلة ربتت على خدى وسألتنى وهى تدنى وجهها من وجهى:

– إننى رســمت خطة. خطة نهائية وسأســتعين فــى تنفيذها باثنين أحدهما أنت... وسكتت، فكان طبيعيا أن أسأل:

– والثانى؟!

– الثانى... الله!

فابتســمت للمــرة الأولى بعد مــوت أمى ونظــرت إليها نظرة مستفهمة مذكرة بالماضى فقالت:

– أنا أفهم كل ما تريد أن تقول لكن.. هل من الضرورى أن نظل هكذا.. إننى أخاف على أبنائى.. لقد أصبحا يدركان الأمر إدراكا غامضا ربما يفســره لهما شخص أو حادث.. وما دمت لا أستطيع أن أكون أما فمن الأولى ألا أعود.. آ.. الدنيا تغيرت يا صديقى لقد كبرت.

– من؟

– أنــا... ألا تــرى ذلك؟! ســأحاول أن أقيم ســدا بين الحاضر والمســتقبل. ساعدنى وسيســاعدنى الله.. لقد عزمت على أن أحج.. وأطرقت فى خجل..

فسألت مستغربا:

– تحجين؟!

– نعم. أما أنت فسأراك (عريسا).. ستنسى كل أحزانك احذر أن تستسلم يا أخى.. أليس من الجائز أن ألتقى بكما ذات يوم وأنتما فى الطريق.. آه.. بماذا ستحدثها عنى؟!.. يومئذ تقتحمنى نظراتك.. إنها فتاة سعيدة.. انظر كيف أن امرأتين تحبانك جدا حرمت إحداهما وستحرم الأخرى من أن ترى (عروستك)؟!..

وجرفها التيار فنسيت نفسها، وبكت بحرقة. ووقعت أنفاسها على خدى وهى جالسة، فخذى جنب فخذها، وكأنها همت أن تغرينى بقبلة فوجدت لزاما على أن أتغافل.

وكفكفت دمعها ثم قالت وهى تبتسم:

– هل سببت لك ألما؟!

فأجبتها بحنان:

– لا.. لا تحزنى!

– فكر فى نفسك أنت. واعلم أننى لن أنساك! لكن.. هل سيقبل الله حجتى. سأتوسل إليه هناك. من يدرى؟!.. أليس من الجائز أن أدفن فى (المدينة)؟!

وكان الخجل يلون خدها فأكدت لها ما سبق أن أكده أبى لأمى حين نهته عن المعاصى: «من أن الله غفور رحيم وأنه لا ينبغى أن نسلبه إحدى صفاته».

فقالت فى فرح:

– إذا مت فاسأل عن أبنائى. إنهم يحبونك!

– وإذا عدت بالسلامة؟

– سأذهب إليك إذا احتجت معونة منك ونعيش أخوين.. أليس ذلك ممكنا؟

– ولماذا لا يكون غير ممكن؟!

– عدنى أنك تسارع بالزواج. هل تذكر؟

– قصة الطبيب؟!

– حسن. أنت تذكر كل ما قلته لك. إذن فأنت تحبنى. وهل تذكر آخر لقاء كان بيننا؟ اجعله دائما فى خاطرك. آه.. مالنا ضعفاء أشكرك فإنك ستساعدنى!!..

– وسيساعدك الله. وداعا!

وقبلت كفيها الاثنتين وذهبت تودعنى حتى الباب. وبعد أن خرجت سمعت شهقة بكائها وهى تلقى على – من فتحة الباب الموارب – بالنظرة الأخيرة.

* * *

وفى المساء التالى رأيت بدرية تنقل إلى بيتها، وهى بملابس الحداد أشياء عدتها غير لازمة لى.

فراش أمها وثيابها، والدجاج والأرانب، وقرطها الطويل وصوان ملابسها. قلت فى نفسى: لقد أخذت حاجات العروسة

فكيــف لا تأخذ حاجــات العجوزة؟ فلتأخذ إذن كل ما يشــفى غلة طمعها. ثم خرجوا من البيت...

وفــى الليلة الأولــى من ليالى وحدتى ظلت الأشــجار تحف طول الليل والهواء يئن. والكلب ينبح. ورأيت أشباحا كثيرة ما كنت أتوقع أن أراهــا، كأن أرواح الذين ســكنوا المنزل ورحلوا عنه كانت هائمة فيــه. أبى ينزل من فوق ليأخذ العصا ويحبك الطربوش ثم ينقل خطاه المنتظمة على البلاط فى الصالة ويخرج. وســميرة مكبة على الأرض تمســحها وثوبها مربوط على وسطها على هيئة حزام، وكأننى أسمع (كبكبــة) الجردل. وأمى ترتب النحــاس فى المطبخ. وبدرية تحمل قفص الدجاج على رأسها وتلف به الصالة كأنها تطوف حول ضريح...

سألت نفسى: أهذا كابوس؟!

ثم أجبت بعد برهة: لقد كان العمر كله كابوسا!! ماذا أصنع لو اعترانى مرض وأنا وحدى. أو دخل على لص.. أو أصابنى إغماء؟

ما أفظع حياة الوحدة! إن المقبرة الوحيدة تثير حسرة المارين. آه.. حتى المقابر تقوم على هيئة مجموعات.. يا إلهى. لن أستطيع أن أعيش هكذا. لا بد أن يتغير كل شىء. حاولت أمى – وربما كان على غير قصد منها – أن تعوق تدفق الحوادث بكفها، وقد نجحت فى ناحية وفشلت فى ناحية. احتفظت بى لأنها تحبنى ثم أحست أخيرا بالحسرة لأنها احتفظت بى...

سأترك هذا المكان. نعم. يجب.

وقبيل الفجر استيقظت على بكاء طفل. ولم أدر أين أنا؟ ثم أفقت شيئا فشيئا فذكرت تفاصيل الحوادث. فملأنى الرعب. وكان الكلب ينبح فى الحديقة والريح تئز. وصفيحة قديمة على السطح منزوعة من العشة كان أولاد بدرية يلعبون بها فأخذ الهواء يلعب بها فى الليل.

وسألت نفسى: ومن أين جاء بكاء الأطفال؟ إنه كابوس! كابوس؟! لقد كان العمر كله كابوسا... سأترك هذا المكان. من يرينى وجه الصباح؟.. كم هو جميل!.. لا يعرف جماله إلا من هو فى مثل موقفى!..

وفى الليلة التالية كان البيت مغلقا لا يلمع فيه نور وأنا فى شقة صغيرة جديدة، فيها بقية أثاثنا فى حارة فى قلب القاهرة، مزحومة بالناس لأننى ظمآن إلى الضجة، أفكر - والكلب مشدود إلى شنكل الشقة - فى التى ستشاركنى سكنى.

وحين أشرقت شمس الصباح التالى وألقت بأشعتها على بيت حلوان كانت الحديقة شديدة الظمأ. وسلم السلاملك معفرا وعليه آثار المطر والباب الداخلى موصدا بالمفتاح. وباب الحديقة المصنوع من قضبان الحديد مغلقا بقفل وسلسلة، وقد علقت فى أعلاه لا فتة من الورق المقوى كتب عليها بحروف كبيرة: «الأرض والأنقاض للبيع»!!

ومر عليه أول رجل فهمس وهو يحرك رأسه:

– سبحان الله!.. أين سكانه؟!.. لكن.. الأمر لا يخلو من فرصة.. لأن الأرض فى هذه البقعة أصبحت غالية الثمن!

ولم يشــعر ذلك الذى حســب الحســبة أننى خلفــت بين هذه الجدران أعز ذكريات الشباب!

(الروضة – القاهرة – فى يناير ١٩٥٧م)

* * *